كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بدمياط الجديدة
المجلة العلمية
العدد التاسع ٢٠٢١م

تفسير المصائب والكوارث بين الإسلام والثقافات الأخرى

إعداد الدكتور

أحمد أحمد إسماعيل سالم

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية
كلية أصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر

الملخص باللغة العربية والإنـجليزية

تفسير المصائب والكوارث بين الإسلام والثقافات الأخرى

الباحث: أحمد أحمد إسماعيل سالم

قسم: الدعوة والثقافة الإسلامية، **كلية**: أصول بالقاهرة، **جامعة**: الأزهر، **الدولة**: مصر.

البريد الإلكتروني: ahmedsalim. ٢٠١٣@azhar. edu. eg

الملخص:

يتعرض العالم لكثير من الكوارث الطبيعية كالأعاصير والزلازل والبراكين والعواصف والأوبئة المدمرة، وتنوعت التفسيرات لهذه الكوارث قديما وحديثا، ومن ثم تعرض هذه الدراسة لأبرز هذه التفسيرات الدينية والعلمية بغية الوصول للتفسير الحق المجرد من الخرافات والأوهام باسم الدين، أو الأباطيل والإلحاد باسم العلم. وجاءت هذه الدراسة في مقدمة، ومبحثين، وخاتمة.

أما المبحث الأول فقد تناول: تفسير المصائب والكوارث في الثقافات غير الإسلامية

والمبحث الثاني فتناول: تفسير المصائب والكوارث في الثقافة الإسلامية، ثم كانت الخاتمة التي تناولت أهم النتائج، ومنها:

- أنه يوجد عامل مشترك بين الديانات الوثنية واليهودية والمسيحية في تفسير المصائب والكوارث الكونية الكبيرة بردها إلى القوة الإلهية، وافترقت من جهة إيمان الوثنيين بتعدد الألهة ووقوع صراعات بينهم يترتب عليها الكوارث، **بينما يؤمن** أهل الكتاب بأن الكوارث تقع بتقدير إله واحد، والسبب فيها خطايا البشر. وفي المقابل ظهر الاتجاه المادي الذي يفسر الكوارث والمصائب على أساس من الأسباب المادية العلمية، **وي**نفي التدخل الإلهي في الظواهر الكونية. **أما** التصور الإسلامي **لما يقع من كوارث** فقد تميز بالجمع بين العقل والإيمان بالغيب، وتحرر من الخرافة والإلحاد. ثم كانت التوصيات وأبرزها: ضرورة تدريس الظواهر الطبيعة في إطار العلم الذي يكشف الأسباب المادية الظاهرة، والإيمان الذي يعرض الحقائق الغيبية، وإرادة الله الخفية.

الكلمات المفتاحية: تفسير، المصائب، الكوارث الطبيعية.

Interpretation of calamities and disasters between Islam and other cultures

Researcher's name: DR. Ahmed Ahmed Ismail salem

Al-Azhar ،**Faculty** of Fundamentals of Religion in Cairo ،**Department** of Da`wah and Islamic Culture

Egypt ،University

E-mail: ahmedsalim. 2013@azhar. edu. eg

:**Abstract**

،volcanoes ،earthquakes ،The world is exposed to many natural disasters such as hurricanes ancient and ،and the interpretations of these disasters ،storms and devastating epidemics and then this study presents the most prominent of these religious and ،varied ،modern scientific interpretations in order to reach the interpretation of the right abstract of myths and .or falsehood and atheism in the name of science ،illusions in the name of religion

.and a conclusion ،two chapters ،This study came in an introduction

it dealt with: the interpretation of calamities and disasters in non-Islamic ،As for the first topic cultures

، The second topic dealt with: the interpretation of calamities and disasters in Islamic culture :including ،and then the conclusion that dealt with the most important results

Jewish and Christian religions in explaining the ،- There is a common factor between pagan and they ،great cosmic catastrophes and catastrophes by returning them to the divine power differed in terms of the pagan belief in the multiplicity of gods and the occurrence of conflicts and the belief of the People of the Book that disasters ،between them that result in disasters .and the cause of them are human sins ،occur at the discretion of one God

the materialistic trend emerged that explains disasters and calamities on ،On the other hand and the denial of divine intervention in cosmic ،the basis of scientific material causes .phenomena

Keywords.natural disasters ،calamities ،interpretation

المقدمــــــة

تنوعت آراء الأمم قديما في تفسير ما يحدث في الكون من كوارث مرعبة تبعا لثقافتها، وما توفر لها من وسائل معرفية محدودة، ثم جاء الإسلام فكشف الستار عن كثير من أسرار هذا الكون وما يقع فيه مكاره وشرور، ثم تطورت الوسائل المعرفية الحديثة التي كشفت النقاب عن كثير من الأسباب المادية والقوانين التي تحدث هذه الظواهر بسببها، وحصرتها في القوى الكامنة فيها أو الغضب والانتقام من الطبيعة بسبب العدوان البشري عليها، ومن ثم انتشرت التفسيرات الإلحادية، التي تدثرت بثياب العلم، بعدما فصلت الدين عنه، ومن ثم عادت الانتكاسة في تفسير ظواهر الكون وما تخلفه من مكاره للبشر.

لذا رأيت أن أسهم بهذه الدراسة التي تستعرض التفسيرات الدينية والعلمية للكوارث الكونية، ومقارنتها بالتفسير الإسلامي الذي جمع بين العلم واليقين بالغيب.

أهمية الموضوع

-الكشف عما قدمته الديانات الوثنية والكتابية وأصحاب الاتجاهات المادية من تفسيرات للكوارث الكونية.

-عرض وبيان مختصر للتفسير الإسلامي للكوارث الطبيعية سواء أنزلت بأرض الخارجين على منهج الله تعالى أم بأرض الصالحين من أوليائه.

-حاجة المجتمع إلى معرفة ما ورد في الإسلام فيما يتعلق بتفسير ما يقع من كوارث وأوبئة، وما يجب عليهم تصوره نحوها، وما يشعرهم بالأمن والطمأنينة في زمن الكوارث.

أهداف البحث

- يسعى البحث إلى تقديم دراسة علمية حول تفسيرات الأمم للكوارث الطبيعية، وبيان التصور الإسلامي لها، وعقد مقارنة تبرز محاسن هذا الدين وتوازنه في الجمع بين العلم والإيمان،
- كما يسعى هذا البحث لتحقيق التوازن النفسي عند المصاب وعدم الانهيار أما الكوارث الكونية المرعبة
- بيان أن الكوارث والمصائب لها مقاصد وحكم إلهية. من أدركها أنقذ نفسه من الجزع والهلع.

منهج البحث

تنوعت وتكاملت المناهج العلمية في هذه الدراسة، فكان منها المنهج الوصفي في بيان التعريفات والأهمية لبعض المسائل، كما كان كذلك المنهج الاستقرائي والتحليلي والاستنباطي عند دراسة الآيات والأحاديث ذات الصلة بموضوع البحث، كما قمت بعزو الآيات إلى سورها، وتخريج الأحاديث من مراجعها الأصيلة.

تساؤلات البحث

يحاول البحث الإجابة عن التساؤلات التالية:

- ما مفهوم المصائب الكوارث الطبيعية؟ وهل وراءها قوى خفية أم أنها تخضع لأسباب مادية كشفها العلم الحديث؟
- ما تفسيرات الأديان لوقوع هذه الكوارث؟
- هل هناك علاقة بين الكوارث ومعاصي البشر؟

- هل كل ما يقع من كوارث عقوبة إلهية؟

خطة البحث

يشتمل هذا البحث على مطلب تمهيدي ومبحثين وخاتمة على النحو التالي:

- المطلب التمهيدي: وبينت فيه التعريف بمصطلحات: (مصائب – كوارث طبيعية)

- المبحث الأول وتناول: تفسير المصائب والكوارث في الثقافات غير الإسلامية

- المبحث الثاني وتناول: تفسير المصائب والكوارث في الثقافة الإسلامية، ثم كانت الخاتمة التي تناولت أهم النتائج، والتوصيات، ثم فهرس المراجع والموضوعات.

المطلب التمهيدي

التعريف بمفهومي: (مصائب، كوارث)

أولا: مفهوم المصيبة:

أ. في اللغة:

جاء في المصباح المنير: «وَالْمُصِيبَةُ الشِّدَّةُ النَّازِلَةُ وَجَمْعُهَا الْمَشْهُورُ مَصَائِبُ قَالُوا وَالْأَصْلُ مَصَاوِبُ وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ قَدْ جُمِعَتْ عَلَى لَفْظِهَا بِالْأَلِفِ وَالتَّاءِ فَقِيلَ مُصِيبَاتٌ قَالَ وَأَرَى أَنَّ جَمْعَهَا عَلَى مَصَائِبَ مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ.. »(١)

ويقول ابن منظور: [«والمُصِيبةُ: مَا أَصابَك مِنَ الدَّهْرِ، وَكَذَلِكَ المُصابةُ والمَصُوبة، بِضَمّ الصَّادِ، وَالتَّاءِ لِلدَّاهِيَةِ أَو لِلْمُبَالَغَةِ، وَالْجَمْعُ مَصاوِبُ ومَصائِبُ، الأَخيرة عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ»](٢)

فالمصيبة تدور حول المكاره والشدائد التي تحل بالإنسان.

ب: في الاصطلاح:

جاء في التعريفات للجرجاني: [المصيبة: ما لا يلائم الطبع، كالموت ونحوه](٣)

ويقول الراغب: [والمُصِيبَةُ أصلها في الرّمية، ثم اختصّت بالنّائبة نحو: أَوَلَمَّا أَصابَتْكُمْ

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/ ٣٥٠)، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.

(٢) «لسان العرب» (١/ ٥٣٥): محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ

(٣) «التعريفات» (ص٢١٧): علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، ط: الأولى ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها[١]] [٢] ثم يتابع القول مضيفا معنى جديدا فيقول: [«وأصاب: جاء في الخير والشّرّ. قال تعالى: إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ[٣]، وَلَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ[٤]، فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ [٥]، قال:

الإِصَابَةُ في الخير اعتبارا بالصَّوْبِ، أي: بالمطر، وفي الشّرّ اعتبارا بِإِصَابَةِ السّهمِ، وكلاهما يرجعان إلى أصل][٦]، ويقول المناوي: [«المصيبة: اسم لكل ما يسوء الإنسان»][٧]

فالإصابة ترد في الخير كما ترد في الشر، فيقال مثلا أصاب كبد الحقيقة، أو أصاب الهدف، أو اجتهد فأصاب، أما المصيبة -وهي اسم الفاعل من أصاب فإنها تختص بالنوائب والشرور التي يكرهها الإنسان، وهي بهذا المعنى الاصطلاحي لم تبعد عن المعنى اللغوي.

والمصائب ليست نوعا واحدا، فمنها ما يصيب الناس والبيئة: كما وقع لقوم نوح من طوفان طاغ، أو ما نزل بقوم لوط، وقوم عاد.

---

(١) آل عمران: ١٦٥.

(٢) «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٩٥): أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، بيروت، ط: الأولى - ١٤١٢ هـ.

(٣) [التوبة/ ٥٠].

(٤) النساء: ٧٣.

(٥) النور: ٤٣.

(٦) «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٩٦، ٤٩٥): أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، بيروت، ط: الأولى - ١٤١٢ هـ.

(٧) «التوقيف على مهمات التعاريف» (ص٣٠٧)، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن علي الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، ط، عالم الكتب، القاهرة، ط: الأولى، ١٩٩٠م.

ومن المصائب العامة ما يختص بالبيئة، كما وقع لقوم فرعون من اطلاق الحشرات المدمرة للزراعة، والقمل والضفادع والدم. وهناك مصائب خاصة تصيب الإنسان دون البيئة، كهلاك فرعون وجنوده في اليم، وما حل بالسامري من بعد، والصيحة التي أخذت قوم شعيب. والمصائب الخاصة قد تكون عقوبة أو ابتلاء أو تطهيرا أو رفعا للدرجات كما سيتبين ذلك في المبحث الثاني. إن شاء الله تعالى.

ثانيا: مفهوم الكوارث

أ: في اللغة:

[«(كَرَثَ) الْكَافُ وَالرَّاءُ وَالثَّاءُ، لَيْسَ فِيهِ إِلَّا كَرَثَهُ الْأَمْرُ، إِذَا بَلَغَ مِنْهُ الْمَشَقَّةَ»][(١)]

وقال الجوهري: «وكَرَثَهُ الغَمُّ يَكْرُثُهُ بالضم، إذا اشتدَّ عليه وبلغ منه المَشَقَّةَ. وأَكْرَثَهُ مثله» [(٢)]

وجاء في المعجم الوسيط: [«(الكارثة) النَّازِلَة الْعَظِيمَة والشدة (ج) كوارث وَيُقَال كرثته الكوارث أقلقته»][(٣)]

فالكارثة في اللغة نازلة شديدة تسبب المشقة والحزن الشديد، وهي بهذا تلتقي مع المصيبة في المعنى العام.

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/ ١٧٥): أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) «الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية» (١/ ٢٩٠)، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت
الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

(٣) «المعجم الوسيط» (٢/ ٧٨٢)، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة.

ب: في الاصطلاح:

تعرف هيئة الأمم المتحدة الكارثة بأنها [حالة مفجعة يتأثر من جرائها نمط الحياة اليومية فجأة ويصبح الناس يعانون من ويلاتها ويصيرون في حاجة إلى حماية، وملابس، وملجأ، وعناية طبية واجتماعية واحتياجات الحياة الضرورية الأخرى. وتتنوع هذه الكوارث إذ يوجد منها العواصف والفيضانات والهزات الأرضية والانفجارات البركانية.] (١)

أما المنظمة الدولية للحماية المدنية فتعرف الكارثة بأنها: [حوادث غير متوقعة ناجمة عن قوى الطبيعة، أو بسبب فعل الإنسان ويترتب عليها خسائر في الأرواح وتدمير في الممتلكات، وتكون ذات تأثير شديد على الاقتصاد الوطني والحياة الاجتماعية وتفوق إمكانيات مواجهتها قدرة الموارد الوطنية وتتطلب مساعدة دولية.] (٢)

ويعرفها دليل الدفاع المدني الصناعي: بأنها[حادثة كبيرة ينجم عنها خسائر جسيمة في الأرواح والممتلكات وقد تكون كارثة طبيعية مردها فعل الطبيعة (سيول، زلازل، عواصف.. الخ) وقد تكون كارثة فنية سببتها يد الإنسان المخربة سواء كان إرادياً (عمداً) أم لا إرادياً (بالإهمال) وتتطلب مواجهتها معونة الأجهزة الوطنية كافة (حكومية وأهلية) أو الدولية إذا كانت قدرة مواجهتها تفوق القدرات الوطنية.] (٣)

---

(١) انظر: الكوارث الكونية في بلاد الشام، محمد حمزة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، ص ٣. وانظر: موقع: هارفرد بزنس ريفيو/ المفاهيم الإدارية: https: //hbrarabic. com

(٢) "معلومات عن كارثة طبيعية على موقع: cv. iptc. org". cv. iptc. org

(٣) نفس *المصدر السابق. واقرأ المزيد على موقع https: //ar. wikipedia. org/wiki/*

- **يلاحظ على هذه التعريفات ما يلي:**
- الكوارث تكون عامة وشاملة وتسبب خسائر فادحة، وهي بذلك تتشابه أو تتطابق مع مفهوم المصيبة العامة.
- الكوارث مردها غالبا إلى ظواهر طبيعية كالعواصف والسيول والزلازل والأوبئة.
- الظواهر الطبيعية إذا حدثت بمناطق غير سكنية فلن يكون هناك تدميرا للمتلكات ولاهلاكا في الأرواح ومن ثم لن تكون في هذه الحالة كارثة.
- أن الكوارث الطبيعية قد يكون مردها فعل البشر، وبما أحدث من خلل في التغير المناخي، أو التوسع العمراني الغير منظم.
- الكوارث الطبيعية متعددة الأنواع، ويمكن تقسيمها حسب طبيعتها على النحو الآتي:
- الكوارث الجيوفيزيائيّة: ومنها الزلازل، والانزلاقات الأرضيّة، والتسونامي، والنشاط البركاني.
- الكوارث المناخيّة: ومنها موجات الحرّ، والحرائق، والجفاف، والأعاصير.
- الكوارث الهيدرولوجيّة: مثل الانهيارات الجليديّة، والفيضانات. الكوارث البيولوجية: مثل الأمراض، والأوبئة، والحشرات الطُفيليّة.[1]

(١) مفهوم الكارثة الطبيعية، عاتكة البوريني، مقال منشور بتاريخ: ٢٠١٨/٨/١٩م بموقع: موضوع/ https: //mawdoo٣, com/

- **توطئة:**

شاءت إرادة الله تعالى أن تقع في الأرض زلازل، وتغييرات مناخية، وتحدث آفات سماوية كالجفاف، والجراد، وتظهر أمراض وأوبئة تصيب الخلق في أنفسهم وأموالهم بما يكرهون، ويختلف الناس في نظرتهم لهذه المصائب العامة، وتعاملهم معها، فهناك الإنسان القديم الذي حاول تفسير هذه المظاهر من حوله فردها إلى قوى خفية متحكمة فيها، وحاول التقرب إليها رغبة ورهبة، وهناك من يفسرها تفسيرا دينيا على أنه غضب إلهي يعاقب الله به البشر إذا غضب عليهم، وهناك أيضا من يفسر تلك المصائب والكوارث تفسيرا علميا، فيكتشف الأسباب التي أدت إليها، وطرق اكتشافها قبل وقوعها، كالزلازل مثلا لتقليل خسائرها، أو اختراع علاج للأوبئة الفتاكة بأرواح الناس، وربما عبروا عن هذه المصائب العامة بقولهم: غضب الطبيعة.. و يقف هؤلاء عند التفسير المادي للظاهرة الكونية.

أما المؤمن فإنه لا يقف عند التفسير المادي ولا يتجاهله، ولكن ينظر إلى الذي خلق هذه الظاهرة وقدرها وسيرها وفق السنن التي وضعها لكونه، ويتدبر رسائله منها، ويلجأ إليه – مع أخذه بالأسباب العلمية- راجيا أن يكشف الضر ويرفع البلاء.

ونرى هذا الاختلاف في تفسير الظاهرة الكونية، واضحا جليا في قصة نوح عليه السلام وابنه في النظر إلى الطوفان، والتعامل معه، فالابن يراه مجرد ظاهرة طبيعية محضة، والنجاة ميسورة، إنها الاعتصام بالجبل، ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾[1]

(١)[هود: ٤٣].

أما نوح عليه السلام، فنظرته الإيمانية تجاوزت التفسير المادي، ويراه أمر الله الذي سيحوله إلى عقوبة دنيوية عاجلة.. ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾[1]

فهناك إذن من قديم اختلاف في تفسير الكوارث والمصائب، ونعرض لأهم هذه التفاسير والرؤى في مبحثين:

الأول: **تفسير المصائب والكوارث في الثقافات غير الإسلامية**

والثاني: **تفسير المصائب والكوارث في الثقافة الإسلامية**

(١)[هود: ٤٣].

المبحـــــث الأول
تفسير المصائب والكوارث في الثقافات غير الإسلامية

وسيتم تناوله من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: تفسير المصائب والكوارث في الديانات الوثنية القديمة

المطلب الثاني: تفسير المصائب والكوارث في الثقافة اليهودية والنصرانية

المطلب الثالث: تفسير المصائب والكوارث في الثقافة المادية العلمية

المطلب الأول

تفسير المصائب والكوارث في الديانات الوثنية القديمة

نظرا لقلة الأدوات المعرفية التي تمكن الإنسان القديم من رصد الظواهر الكونية وفهم قوانينها الحاكمة من ناحية، وحاجته الماسة لفهم أسرار الكون من حوله من ناحية أخرى لم يجد أمامه إلا الأساطير التي حاول بها الإجابة عن أسئلته الحائرة، وطمأنة نفسه مما يقع حوله من مظاهر كونية تثير فيه الرغبة والرهبة.

وتطورت هذه الأساطير حتى بلغت ذروتها عندما حاولت تفسير بدايات الخلق، وقد سجلت المقابر والنقوش الحجرية والبرديات وغيرها تفسيرات نشأة الكون وظواهره الطبيعية، وأعرض لنماذج منها في الحضارات التالية

أولا: التفسير الديني عند قدماء المصريين

سجلت العقلية المصرية القديمة أساطيرها لنشأة الكون والمخلوقات والتي من أشهرها النظريات التالية:

أ. نظرية هليوبولس المصرية (عين شمس) (١)

(١) هليوبوليس او مدينة عين شمس، الاسم الإغريقي للمدينة المصرية القديمة عاصمة. المقاطعة الثالثة عشرة في مصر السفلى، شمال مدينة القاهرة، وهي -في زعمهم-مركز عبادة الإله رع إله الشمس أهم الآلهة المصرية وأشهرها. أدمج مع عدة آلهة، عبد كخالق للعالم. يسافر في مركبه عبر السماء بالنهار وفي العالم الآخر في الليل مركز عبادته في هليوبوليس منذ القدم حيث يرأس التاسوع المكون منه ومن "شو وتفنوت وجب ونوت وأوزيريس وإيزيس وست ونفتيس" أصبح الإله الرسمي للبلاد منذ الأسرة الرابعة، أندمج مع آمون منذ الدولة الحديثة تحت أسم "آمون – رع". انظر: ديانة مصر القديمة نشأتها وتطورها ونهايتها، تأليف، أدولف إرمان ترجمة د. عبد المنعم أبو بكر، و د. محمد شكري ٤٧، مطبعة مدبولي القاهرة، ١٩٩٥م.

وخلاصتها كما يقول د مهران: [1] [كانت نظرية أيونو أو أون (هليوبوليس = عين شمس) أولى هذه النظريات الأربع؛ وقالت بماض سحيق قديم؛ لم تكن فيه أرض ولا سماء؛ ولا حس ولا حسيس؛ وما من أرباب أو بشر؛ وانما عدم مطلق لا يشغله سوى كيان مائى لا نهائى عظيم؛ أطلقوا عليه اسم (نون) ظهر من روح إلهى أزلى خالق هو «أتوم» لم يجد مكانا يقف عليه؛ فوقف فوق (تل) ثم صعد فوق حجر (بن بن) فى هليوبوليس؛ على هيئة مسلة رمز الشمس؛ أبو الالهة جميعا؛ وظل آتوم هكذا حينا من الدهر منفردا بوحدانيته؛ حتى ذرأ من نفسه – بامتزاجه بظله أو باستمنائه – عنصرين؛ الواحد ذكر تكفل بالفضاء والهواء والنور؛ وغدا يعرف باسم «شو» والآخر أنثى تكفلت بالرطوبة والندى؛ وغدت تعرف باسم «تفنوت» ثم تزوجا وأنجبا بدورهما «جب» إله الأرض؛ و«نوت» إلهة السماء؛ ثم أوحى إلى «شو» أن يفصل بين السماء والارض؛ وقد كانتا فى بداية أمرهما رتقا؛ وأن يملأ فراغ ما بينهما بالهواء والنور.

ثم ذهب أصحاب عين شمس الى افتراض حلقة وسطى بين الأوضاع المطلقة التى بدأ بها الوجود؛ حينما كان خاصا لأربابه الكبار؛ والأوضاع التى استقر عليها أمر الوجود حينما عمره الانسان؛ ودبت فيه حياة العمران؛ فذهبوا الى أن «جب» و«نون» إنما قد رزقا بمواليد أربعة؛ ذكران هما «أوزير - وست»؛ وأنثيان هما «إيزة - ونفتيس»؛ وقد عرف هؤلاء الآلهة التسعة باسم «تاسوع عين شمس» أو «التاسوع الكبير»] [2]

(١) رئيس قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

(٢) الحضارة المصرية القديمة د. محمد بيومي مهران(٢/٣٠٤، ٣٠٣) دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

إذن خلاصة نظرية عين شمس أنها ترد أصل الوجود إلى تسعة ألهة. وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

(ب) نظرية الأشمونين[١]

كانت نظرية الأشمونيين أو الثمانية كما يقول د مهران في تفسير الظواهر الكونية وبداية الخلق: [اكثر تطورا من تلك التى سبقتها؛ وقد ردت أصل الموجود الى ثمانية عناصر طبيعية أولية سبقت ظهور «رع أتوم) ومهدت لوجوده؛ وتعصب هؤلاء لعناصرهم الثمانية؛ وأطلقوا عليها اسم (الثامون)؛ وخلعوا اسمها على مدينتهم فدعوها (مدينة الثامون) (الاشمونين)

هذا وتتفق نظرية الاشمونين أو الثمانية مع نظرية عين شمس أو التاسوع فى أن العالم كان محيطاً مائياً اسمه (نون)؛ ولكنها تختلف عنها فى أن إله الشمس هنا لم يخلق نفسه؛ وانما انحدر من ثامون مكون من أربعة أزواج على هيئة ضفاضع وحيات؛ خلقت بيضة وضعتها فوق مرتفع على سطح (نون هرموبوليس)؛ ومن هذه البيضة خرجت الشمس؛ فهذه العقيدة تنتهى الى الشمس؛ ولكنها لا تبدأ بها؛ والشمس ولدت فى هرموبوليس؛ وليس هليوبوليس؛ ومن ثم فان للاولى (هرومبوليس) حق السيادة.

وأما آلهة الأشمونين الثمانية فكانوا عبارة عن أربعة ذكور فى هيئة الضفاضع؛ وأربعة إناث فى هيئة الحيات؛ وكل منهما مثل مظهرا من المظاهر التى كانت تسود العالم

(١) مدينة الأشمونين اومدينة الثامون، كان موطنها الأصلي مدينة "أونو"وهي مركز عبادة الإله"تحوت" سميت بهذا الاسم نسبة الى الآلهة الثمانية الذين ظهروا من الماء وقاموا بفعل الخلق حسب نص الأسطورة، أطلق عليها الإغريق اسم هرموبولس نسبة الإله اليوناني" هرمس" الإله المقابل للإله" تحوت". إله الأشمونيين، والتي تقع على مبعدة٤٥ كيلو جنوبي مدينة المنيا. انظر: الحضارة المصرية القديمة، المصدر السابق ص٣١٠.

فى البداية؛ فالزوج الاول هو «نون) و«نونه) «نونت) ويمثل الفراغ اللانهائى؛ والزوج الثانى هو «حوح» و«حوحة» «حوحيت» ويمثل الماء الازلى؛ والزوج الثالث هو «كوك» و«كوكة» «كوكيت» ويمثل الظلمة؛ والزوج الربع «نياو» و«نيات» و«آمون» و«آمونيت»؛ ويمثل الخفاء وأن هؤلاء الثمانية قد خلقوا العالم مجتمعين؛ ثم حكموا فترة من الزمن؛ اعتبرت بمثابة عصر ذهبى؛ ثم انتقلو بعد ذلك الى العالم السفلى؛ وان استمرت قوتهم بعد موتهم لتكون سببا فى فيضان النيل؛ وفى شروق الشمس كل صباح.][1]

ثانيا: حضارة بلاد الر افدين

كيف تصور البابليون خلق العالم؟

يجيب علينا صاحب (أساطير بابل وكنعان)قائلا: [يقولون كان العالم عبارة عن خواء حقيقي، وهوة يختلط فيها الماء العذب الذي يختص بالإله «إيسو» بالماء الملح الذي يحكمه مارد آخر يدعى «تيامات» من هذه الهوة خرج زوجان من الآلهة ثم زوجان آخران ومن الزوجين الأخيرين ولد «آنو» إله السماء، و «إيا» إله البحر.... و طلب «آنو» و«إيا» من «مردوخ» ابن «إيا» أن يثأر لهما من الإهانات التي لحقت بهما من «إيسو» و «تيامات»

فانبرى لهما وبعد معركة حامية، تغلب عليهما وقبض على تيامات وشطر جسمه فعمل السماء من الشطر الأول والأرض من الشطر الثاني، ثم نظم الكون، فوضع الكواكب في أماكنها، وفوض لسين (الإله القمر) قياس الزمن.

(١) الحضارة المصرية القديمة د. محمد بيومي مهران(٣١١/٢، ٣١٠). م.. س

وبعد أن استشار أباه إيا خلق إنسانا سماه «لوللو» وقد خلقه خليطا من الطين والعظم والدم، وهذا الدم كان من دم الإله مردوخ نفسه، وخلق «لوللو» ليكون في خدمة الإلهة.

وبعد هذا الجهد القاسي الذي بذلته الآلهة ركنوا للراحة](١) هكذا تصوروا خلق العالم وظواهره، وخلق الإنسان. وعن عقائد بلاد الرافدين أيضا يقول نائل حنون:

[أما في بلاد الرافدين فإن الآلهة قد تناسلت تباعا بواسطة ثنائية الاتصال الجنسي، فالآلهة "نمو" قد أنجبت ولدا وبنتا هما "آنو" إله السماء مذكر "وكي" آلهة الارض وكانا ملتصقين ببعضهما وغير منفصلين عن الأم "نمو" روح المياه الاولى وكيانها ثم تزوج "انو وكي" فأنجبا ولدهما "انليل" إله، الهواء، الذي قام بالفصل بينهما ثم أنجب انليل ولده "آنا" إله القمر الذي أنجب بدوره ولده" أوتو" إله الشمس](٢).

هكذا حارت عقولهم في تفسير ظواهر الكون، إلا أنهم قرروا أنه لابد لهذه الظواهر الطبيعية من خالق، لكن تقاصرت عقولهم عن إدراك عظمته، فاختلقت الأساطير، وتعددت الأوهام والتصورات باعتقاد تعدد الآلهة التي تتحكم في قوى الكون، وتقربوا إليها طمعا في رضاها، وتجنبا لغضبها الذي يترتب عليه وقوع الكوارث.

(١) أساطير بابل وكنعان، شارل فيروللو، ص٢٠ بتصرف، تعريب ماجد خير بك، مطبعة الكتاب العربي دمشق. ١٩٩٠م..

(٢)عقائد الحياة والخصب في الحضارة العراقية القديمة، نائل حنون، صـ٣٦، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢.

ثالثا: المغرب القديم

لم تختلف المعتقدات الوثنية في المغرب العربي القديم في شكلها العام عن المعتقدات السائدة في نظرتها للكون والحياة وتفسير الظواهر الطبيعية، حيث أرجعت ذلك إلى وجود قوى خفية تسيطر على الظواهر الطبيعية، وهذه القوى الخفية هي التي تدر بالخير حال الرضا، وتعاقب بالشر والحرمان إذا سخطت وغضبت، وتتفاوت هذه القوى الخفية حسب أهميتها ورتبتها، واعتقد الإنسان المغربي القديم [بوجود كبير لهذه الألهة، مثل الإله بعل إله السماء والزمن والعالم، أي أنه يملك هذا العالم] (١)

ومن المعتقدات السائدة تقديس بعض الظواهر الطبيعية كالجبال والحجارة، باعتبارهما مساكن الآلهة(٢)،

حيث ذكر أنه في برقة توجد صخرة يجب أن لا يمسها أحد، وإذا حدث ذلك تثور ريح جنوبية، وتحدث الزوابع وتهيج الرمال(٣) وذلك لأن الجن هو الذي يقوم بتهييجها(٤)

بعد هذه الجولة السريعة حول معتقدات الإنسان القديم حول الكون وتفسيره لما يقع فيه من ظواهر طبيعة وغيرها، أرى من الأهمية بمكان الإشارة إلى النقاط التالية:

---

(١) المظاهر الطبيعية والحيوانات في المعتقدات الوثنية بالمغرب القديم، د. الطيب قديم، بحث منشور بمجلة العلوم الإسلامية والحضارة، المجلد ٤، عدد٢، ص: ٣٣٣، سنة٢٠١٩م الجزائر.

(٢) انظر: موسوعة ميثولوجيا و أساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، حسن نعمة، ص٣٧، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٤م.

(٣) الديانة الوثنية، خلفة عبد الرحمن، ص٨٨.

(٤) الديانة المسيحية في المغرب القديم النشأة والتطور(١٨٠-٤٣٠م)، عمران عبد الحميد، ص٢١، رسالة دكتوراه بقسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠١١م.

أولا: أصحاب هذه النظريات لم يذهبوا مذهب الماديين الذين ينكرون وجود خالق للكون. فتفسيراتهم الدينية تعلل وجود الظواهر الكونية بأنها من عمل الألهة.

ثانيا: الآلهة أو المعبودات في نظر الوثني القديم كالبشر، يرضون ويغضبون، كما يمكن ترضيتهم بالقرابين ولهم صفات البشر أحيانا. (١)

ثالثا: في الوقت الذي لم يتصوروا فيه وجود الكون بدون خالق لم يقدموا تصورا دقيقا لخلق الإنسان، وإنما قدموا تصورات متفرقة، تثير العجب فمن ذلك مثلا تلك الأسطورة المصرية التي تقول: [إن [الإله]أتوم ظل في مياه نون حيث أنجب فيها ولده [شو]، وابنته[تفنوت] وتعهدتهم عينه بالرعاية.... ولكنهم انفصلوا عنه.. ولما عادوا إليه سالت دموعه من الفرح، ومن هذه الدموع جاء البشر، وعندما عاد أتوم لأولاده، كان مستعدا لترك مياه نون وخلق العالم.] (٢)

رابعا: سبق مفكري نظرية عين شمس مفكري العالم القديم بفكرة فصل السماء عن الأرض، ثم رددتها اساطير العراق، ثم تحدث عنها سفر التكوين بعد ذلك.

خامسا: الفكر الديني المصري الوثني القديم يرى أن الإله الأول أتوم مخلوق من نفسه ولم يخلقه أحد، وأن أول أعماله بعد ظهوره إنما هو خلق آلهة أخرى وعملها هو الخلق للعناصر الكونية، كما تقرر ذلك نظرية عين شمس والأشمونيين ومنف وطيبة.

سادسا: الظواهر الطبيعية مجرد صور لآلهة تحركها وفق إرادتها، فمن معتقدات المصريين في الشمس [أن الإله حوريس هو حاكم السماء، له عينان متوهجتان،

(١) الحضارة المصرية القديمة د. محمد بيومي مهران(٣٢٧/٢).

(٢)الحضارة المصرية القديمة د. محمد بيومي مهران(٣٠٨/٢). م.. س. بتصرف يسير.

إحداهما الشمس والأخرى القمر... وقد تصوروا أن إله الشمس على شكل آدمي له قارب يسبح فيه فوق سطح محيط السماء](١)

سابعا: الظواهر الكونية التي يعجز الإنسان القديم عن تفسيرها يعزوها إلى قوى خارجة عن نطاق تفكيره.

إذن لا يمكن الاستغناء عن الآلهة في تفسير الظواهر الكونية وما يقع منها من كوارث ومصائب كما تقرر ذلك الأديان الوثنية القديمة.

(١) راجع: ديانة مصر القديمة نشأتها وتطورها ونهايتها، تأليف، أدولف إرمان، صـ ٣٦ م. س.

المطلب الثاني

تفسير المصائب والكوارث في الثقافة اليهودية والنصرانية

لا يصعب على الباحث في الديانة اليهودية والمسيحية أن يجد تفسيرا -كذلك- لما يقع في الكون من خير أو شر، حيث يرجعونه إلى الله تعالى، وأن وقوع الكوارث والمصائب عقوبة من الله تعالى أيضا بسبب أخطاء البشر في حق الرب. ونجد أدلة ذلك واضحة في أسفار التكوين والخروج بالنسبة لليهودية والنصرانية، وفي سفر (الرؤيا) الخاص بالمسيحية. وبيان ذلك على النحو التالي:

أولا: سفر التكوين

من ذلك مثلا: ما جاء في العهد القديم بسفر التكوين: [وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شِرِّيرٌ كُلَّ يَوْمٍ. ٦ فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الإِنْسَانَ فِي الأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ. ٧فَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ، الإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمَ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ[1]». ٨وَأَمَّا نُوحٌ فَوَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ] [2].

فكان الطوفان كارثة كونية نزلت بالطغاة والعاصين جزاء جرائمهم التي ارتكبوها. كما بينه الإصحاح السابع:

- [.. فِي سَنَةِ سِتِّ مِئَةٍ مِنْ حَيَاةِ نُوحٍ فِي الشَّهْرِ الثَّانِي فِي الْيَوْمِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ انْفَجَرَتْ كُلُّ يَنَابِيعِ الْغَمْرِ الْعَظِيمِ وَانْفَتَحَتْ طَاقَاتُ السَّمَاءِ.

(١)-تعالى شأنه عما يقولون علوا كبيرا- كيف يندم ويأسف ويحزن أنه صنع الإنسان في الأرض؟.

(٢) تكوين: ٦: ٥-٨

- ١٢. وَكَانَ الْمَطَرُ عَلَى الارْضِ ارْبَعِينَ يَوْما وَارْبَعِينَ لَيْلَةً.
- ١٧. وَكَانَ الطُّوفَانُ ارْبَعِينَ يَوْما عَلَى الارْضِ. وَتَكَاثَرَتِ الْمِيَاهُ وَرَفَعَتِ الْفُلْكَ فَارْتَفَعَ عَنِ الارْضِ.
- ١٨. وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ وَتَكَاثَرَتْ جِدّا عَلَى الارْضِ فَكَانَ الْفُلْكُ يَسِيرُ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ.
- ١٩. وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ كَثِيرا جِدّا عَلَى الارْضِ فَتَغَطَّتْ جَمِيعُ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ الَّتِي تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ.
- ٢٠. خَمْسَ عَشَرَةَ ذِرَاعا فِي الِارْتِفَاعِ تَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ فَتَغَطَّتِ الْجِبَالُ.
- ٢١. فَمَاتَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ كَانَ يَدِبُّ عَلَى الارْضِ مِنَ الطُّيُورِ وَالْبَهَائِمِ وَالْوُحُوشِ وَكُلُّ الزَّحَّافَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَزْحَفُ عَلَى الارْضِ وَجَمِيعُ النَّاسِ.
- ٢٢. كُلُّ مَا فِي انْفِهِ نَسَمَةُ رُوحِ حَيَاةٍ مِنْ كُلِّ مَا فِي الْيَابِسَةِ مَاتَ.
- ٢٣. فَمَحَا اللهُ كُلَّ قَائِمٍ كَانَ عَلَى وَجْهِ الارْضِ: النَّاسَ وَالْبَهَائِمَ وَالدَّبَّابَاتَ وَطُيُورَ السَّمَاءِ فَانْمَحَتْ مِنَ الارْضِ. وَتَبَقَّى نُوحٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ فَقَطْ..][1]

ثانيا: (سفر الخروج)

- من أسفار العهد القديم كذلك سفر الخروج، وقد كشف قسوة وعناد فرعون وقومه فعاقبهم الله تعالى بألوان شتى من تحويل الظواهر الكونية إلى كوارث عقوبة لهم لعلهم يرجعون إلى الله ويرفعون الظلم والقهر والاستعباد عن بني إسرائيل.

(١) سفر التكوين: ٧: ١٠-٢٤

- ومن هذه الكوارث التي أوردها السفر ما يلي:
- **الأول: التعذيب بتحويل ماء النهر إلى دم**
- [هَا انَا اضْرِبُ بِالْعَصَا الَّتِي فِي يَدِي عَلَى الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ فَيَتَحَوَّلُ دَما.
- ١٨. وَيَمُوتُ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَيَنْتِنُ النَّهْرُ. فَيَعَافُ الْمِصْرِيُّونَ انْ يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ».
- ١٩. ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قُلْ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى مِيَاهِ الْمِصْرِيِّينَ عَلَى انْهَارِهِمْ وَعَلَى سَوَاقِيهِمْ وَعَلَى اجَامِهِمْ وَعَلَى كُلِّ مُجْتَمَعَاتِ مِيَاهِهِمْ لِتَصِيرَ دَما. فَيَكُونَ دَمٌ فِي كُلِّ ارْضِ مِصْرَ فِي الاخْشَابِ وَفِي الاحْجَارِ».
- ٢٠. فَفَعَلَ مُوسَى وَهَارُونُ هَكَذَا كَمَا امَرَ الرَّبُّ. رَفَعَ الْعَصَا وَضَرَبَ الْمَاءَ الَّذِي فِي النَّهْرِ امَامَ عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَامَامَ عُيُونِ عَبِيدِهِ فَتَحَوَّلَ كُلُّ الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ دَما.
- ٢١. وَمَاتَ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَانْتَنَ النَّهْرُ فَلَمْ يَقْدِرِ الْمِصْرِيُّونَ انْ يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ. وَكَانَ الدَّمُ فِي كُلِّ ارْضِ مِصْرَ.][1].
- **الثاني: التعذيب بالضفادع**

[١. قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «ادْخُلْ الَى فِرْعَوْنَ وَقُلْ لَهُ: هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: اطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي.
- ٢. وَانْ كُنْتَ تَابَى انْ تُطْلِقَهُمْ فَهَا انَا اضْرِبُ جَمِيعَ تُخُومِكَ بِالضَّفَادِعِ.

(١) سفر الخروج: ٧: ١٧-٢١

- ٣. فَيَفِيضُ النَّهْرُ ضَفَادِعَ. فَتَصْعَدُ وَتَدْخُلُ الَى بَيْتِكَ وَالَى مِخْدَعِ فِرَاشِكَ وَعَلَى سَرِيرِكَ وَالَى بُيُوتِ عَبِيدِكَ وَعَلَى شَعْبِكَ وَالَى تَنَانِيرِكَ وَالَى مَعَاجِنِكَ.
- ٤. عَلَيْكَ وَعَلَى شَعْبِكَ وَعَبِيدِكَ تَصْعَدُ الضَّفَادِعُ».
- ٥. فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قُلْ لِهَارُونَ: مُدَّ يَدَكَ بِعَصَاكَ عَلَى الانْهَارِ وَالسَّوَاقِي وَالاجَامِ وَاصْعِدِ الضَّفَادِعَ عَلَى ارْضِ مِصْرَ».
- ٦. فَمَدَّ هَارُونُ يَدَهُ عَلَى مِيَاهِ مِصْرَ فَصَعِدَتِ الضَّفَادِعُ وَغَطَّتْ ارْضَ مِصْرَ.][1]
- **الثالث: التعذيب بالبعوض**
- [١٦. ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قُلْ لِهَارُونَ: مُدَّ عَصَاكَ وَاضْرِبْ تُرَابَ الارْضِ لِيَصِيرَ بَعُوضا فِي جَمِيعِ ارْضِ مِصْرَ».
- ١٧. فَفَعَلا كَذَلِكَ. مَدَّ هَارُونُ يَدَهُ بِعَصَاهُ وَضَرَبَ تُرَابَ الارْضِ فَصَارَ الْبَعُوضُ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ. كُلُّ تُرَابِ الارْضِ صَارَ بَعُوضا فِي جَمِيعِ ارْضِ مِصْرَ.
- ١٨. وَفَعَلَ كَذَلِكَ الْعَرَّافُونَ بِسِحْرِهِمْ لِيُخْرِجُوا الْبَعُوضَ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا. وَكَانَ الْبَعُوضُ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ.][2]
- **الرابع: التعذيب بالذباب**
- [٢٤. فَفَعَلَ الرَّبُّ هَكَذَا. فَدَخَلَتْ ذُبَّانٌ كَثِيرَةٌ الَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ وَبُيُوتِ عَبِيدِهِ. وَفِي كُلِّ ارْضِ مِصْرَ خَرِبَتِ الارْضُ مِنَ الذُّبَّانِ.][3]

(١) الخروج: ٨: (١-٦)
(٢) الخروج: ٨: (١٦-١٨)
(٣) الخروج: ٨: (٢٤)

الخامس: التعذيب بالوباء والدمامل في المواشي والمصريين

- [٢. فَانَّهُ انْ كُنْتَ تَابَى انْ تُطْلِقَهُمْ وَكُنْتَ تُمْسِكُهُمْ بَعْدُ

- ٣. فَهَا يَدُ الرَّبِّ تَكُونُ عَلَى مَوَاشِيكَ الَّتِي فِي الْحَقْلِ عَلَى الْخَيْلِ وَالْحَمِيرِ وَالْجِمَالِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَبَا ثَقِيلا جِدّا.

- ٤. وَيُمَيِّزُ الرَّبُّ بَيْنَ مَوَاشِي اسْرَائِيلَ وَمَوَاشِي الْمِصْرِيِّينَ. فَلا يَمُوتُ مِنْ كُلِّ مَا لِبَنِي اسْرَائِيلَ شَيْءٌ».

- ٥. وَعَيَّنَ الرَّبُّ وَقْتا قَائِلا: «غَدا يَفْعَلُ الرَّبُّ هَذَا الامْرَ فِي الارْضِ».

- ٦. فَفَعَلَ الرَّبُّ هَذَا الامْرَ فِي الْغَدِ. فَمَاتَتْ جَمِيعُ مَوَاشِي الْمِصْرِيِّينَ. وَامَّا مَوَاشِي بَنِي اسْرَائِيلَ فَلَمْ يَمُتْ مِنْهَا وَاحِدٌ.

- ٧. وَارْسَلَ فِرْعَوْنُ وَاذَا مَوَاشِي اسْرَائِيلَ لَمْ يَمُتْ مِنْهَا وَلا وَاحِدٌ. وَلَكِنْ غَلُظَ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يُطْلِقِ الشَّعْبَ...

- ٨. ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: «خُذَا مِلْءَ ايْدِيكُمَا مِنْ رَمَادِ الاتُونِ وَلْيُذَرِّهِ مُوسَى نَحْوَ السَّمَاءِ امَامَ عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ

- ٩. لِيَصِيرَ غُبَارا عَلَى كُلِّ ارْضِ مِصْرَ. فَيَصِيرَ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ دَمَامِلَ طَالِعَةً بِبُثُورٍ فِي كُلِّ ارْضِ مِصْرَ».

- ١٠. فَاخَذَا رَمَادَ الاتُونِ وَوَقَفَا امَامَ فِرْعَوْنَ وَذَرَّاهُ مُوسَى نَحْوَ السَّمَاءِ فَصَارَ دَمَامِلَ بُثُورٍ طَالِعَةً فِي النَّاسِ وَفِي الْبَهَائِمِ.

• ١١. وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْعَرَّافُونَ انْ يَقِفُوا امَامَ مُوسَى مِنْ اجْلِ الدَّمَامِلِ لانَّ الدَّمَامِلَ كَانَتْ فِي الْعَرَّافِينَ وَفِي كُلِّ الْمِصْرِيِّينَ.][1]

السادس: التعذيب بالبرد والرعد والنيران والأمطار

[٢٢. ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مُدَّ يَدَكَ نَحْوَ السَّمَاءِ لِيَكُونَ بَرَدٌ فِي كُلِّ ارْضِ مِصْرَ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ وَعَلَى كُلِّ عُشْبِ الْحَقْلِ فِي ارْضِ مِصْرَ».

• ٢٣. فَمَدَّ مُوسَى عَصَاهُ نَحْوَ السَّمَاءِ فَاعْطَى الرَّبُّ رُعُودا وَبَرَدا وَجَرَتْ نَارٌ عَلَى الارْضِ وَامْطَرَ الرَّبُّ بَرَدا عَلَى ارْضِ مِصْرَ.

• ٢٤. فَكَانَ بَرَدٌ وَنَارٌ مُتَوَاصِلَةٌ فِي وَسَطِ الْبَرَدِ. شَيْءٌ عَظِيمٌ جِدّا لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ فِي كُلِّ ارْضِ مِصْرَ مُنْذُ صَارَتْ امَّةً!

• ٢٥. فَضَرَبَ الْبَرَدُ فِي كُلِّ ارْضِ مِصْرَ جَمِيعَ مَا فِي الْحَقْلِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ. وَضَرَبَ الْبَرَدُ جَمِيعَ عُشْبِ الْحَقْلِ وَكَسَّرَ جَمِيعَ شَجَرِ الْحَقْلِ

• ٢٦. الا ارْضَ جَاسَانَ حَيْثُ كَانَ بَنُو اسْرَائِيلَ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا بَرَدٌ.

• ٢٧. فَارْسَلَ فِرْعَوْنُ وَدَعَا مُوسَى وَهَارُونَ وَقَالَ لَهُمَا: «اخْطَاتُ هَذِهِ الْمَرَّةَ. الرَّبُّ هُوَ الْبَارُّ وَانَا وَشَعْبِي الاشْرَارُ.

• ٢٨. صَلِّيَا الَى الرَّبِّ وَكَفَى حُدُوثُ رُعُودِ اللهِ وَالْبَرَدُ فَاطْلِقَكُمْ وَلا تَعُودُوا تَلْبَثُونَ».][2]

(١) الخروج: ٩: (٢-١١)

(٢) الخروج: ٩: (٢٢-٢٩)

السابع: التعذيب بإطلاق الجراد على المحاصيل الزراعية

[١٣. فَمَدَّ مُوسَى عَصَاهُ عَلَى ارْضِ مِصْرَ فَجَلَبَ الرَّبُّ عَلَى الارْضِ رِيحا شَرْقِيَّةً كُلَّ ذَلِكَ النَّهَارِ وَكُلَّ اللَّيْلِ. وَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ حَمَلَتِ الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ الْجَرَادَ

- ١٤. فَصَعِدَ الْجَرَادُ عَلَى كُلِّ ارْضِ مِصْرَ وَحَلَّ فِي جَمِيعِ تُخُومِ مِصْرَ. شَيْءٌ ثَقِيلٌ جِدّا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ جَرَادٌ هَكَذَا مِثْلَهُ وَلا يَكُونُ بَعْدَهُ كَذَلِكَ

- ١٥. وَغَطَّى وَجْهَ كُلِّ الارْضِ حَتَّى اظْلَمَتِ الارْضُ. وَاكَلَ جَمِيعَ عُشْبِ الارْضِ وَجَمِيعَ ثَمَرِ الشَّجَرِ الَّذِي تَرَكَهُ الْبَرَدُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ اخْضَرُ فِي الشَّجَرِ وَلا فِي عُشْبِ الْحَقْلِ فِي كُلِّ ارْضِ مِصْرَ».][1]

الثامن: التعذيب بالظلام الدامس ثلاثة أيام

- [٢١. ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مُدَّ يَدَكَ نَحْوَ السَّمَاءِ لِيَكُونَ ظَلامٌ عَلَى ارْضِ مِصْرَ حَتَّى يُلْمَسُ الظَّلامُ».

- ٢٢. فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ فَكَانَ ظَلامٌ دَامِسٌ فِي كُلِّ ارْضِ مِصْرَ ثَلاثَةَ ايَّامٍ.][2]

التاسع: إهلاك فرعون وقومه في البحر

- [٢٢. فَدَخَلَ بَنُو اسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ.

(١) الخروج: ١٠: (١٣-١٥)

(٢) الخروج: ١٠: (٢١-٢٢)

• ٢٣. وَتَبِعَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ وَدَخَلُوا وَرَاءَهُمْ جَمِيعُ خَيْلِ فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ الَى وَسَطِ الْبَحْرِ.

• ٢٤. وَكَانَ فِي هَزِيعِ الصُّبْحِ انَّ الرَّبَّ اشْرَفَ عَلَى عَسْكَرِ الْمِصْرِيّينَ فِي عَمُودِ النَّارِ وَالسَّحَابِ وَازْعَجَ عَسْكَرَ الْمِصْرِيّينَ

• ٢٥. وَخَلَعَ بَكَرَ مَرْكَبَاتِهِمْ حَتَّى سَاقُوهَا بِثَقْلَةٍ. فَقَالَ الْمِصْرِيُّونَ: «نَهْرُبُ مِنْ اسْرَائِيلَ لانَّ الرَّبَّ يُقَاتِلُ الْمِصْرِيّينَ عَنْهُمْ».

• ٢٦. فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مُدَّ يَدَكَ عَلَى الْبَحْرِ لِيَرْجِعَ الْمَاءُ عَلَى الْمِصْرِيّينَ عَلَى مَرْكَبَاتِهِمْ وَفُرْسَانِهِمْ».

• ٢٧. فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ عَلَى الْبَحْرِ فَرَجَعَ الْبَحْرُ عِنْدَ اقْبَالِ الصُّبْحِ الَى حَالِهِ الدَّائِمَةِ وَالْمِصْرِيُّونَ هَارِبُونَ الَى لِقَائِهِ. فَدَفَعَ الرَّبُّ الْمِصْرِيّينَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ.

• ٢٨. فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلا وَاحِدٌ.

• ٢٩. وَامَّا بَنُو اسْرَائِيلَ فَمَشُوا عَلَى الْيَابِسَةِ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ.

• ٣٠. فَخَلَّصَ الرَّبُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ اسْرَائِيلَ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيّينَ. وَنَظَرَ اسْرَائِيلُ الْمِصْرِيّينَ امْوَاتا عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ.

- ٣١. وَرَاى اسْرَائِيلُ الْفِعْلَ الْعَظِيمَ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ بِالْمِصْرِيِّينَ. فَخَافَ الشَّعْبُ الرَّبَّ وَامَنُوا بِالرَّبِّ وَبِعَبْدِهِ مُوسَى.] (١)

هكذا عاقب الله تعالى فرعون وقومه كما حكي سفر الخروج بألوان من العقوبات كانت كالحرب التي أخضعت فرعون العاتي، الأمر الذي اضطره لإخلاء سبيل المستعبدين، لكن قلبه المطموس القاسي، واستخفافه بالآيات أودى به إلى موارد الهلاك هو وجنوده في نهاية الأمر بمظاهر كونية، بعدما ضربهم قبل الخروج بآفات زراعية وأوبئة ودمامل جسدية.

وهكذا نرى في اللاهوت اليهودي أن الكوارث والمصائب والأوبئة تخضع لإرادة الله وحده، وفقا للحكمة الإلهية على أساس مبدأ الثواب والعقاب، وهذا ما قرره أيضا سفر صموئيل الثاني من العهد القديم، في شأن الوباء في زمن داوود حيث: [جَعَلَ الرَّبُّ وَبَأً فِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الْمِيعَادِ، فَمَاتَ مِنَ الشَّعْبِ مِنْ دَانٍ إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ سَبْعُونَ أَلْفَ رَجُلٍ.] (٢)

ثالثا: (سفر الرؤيا)

وهذا خاص بالثقافة النصرانية، فهو من أسفار العهد الجديد، ويعتبر البعض من المفسرين للعهد الجديد أن سفر الرؤيا يقدم إنذارا لشرور وكوارث طبيعية تقع بالبشرية، نتيجة للأخطاء التي يقع فيها البشر.

وقد جاء في سفر الرؤيا النص التالي:

(١) الخروج: ١٤: (٢٢-٣١).
(٢) سفر صموئيل الثاني - الأصحاح ٢٤: (١٥).

[آيات ٢، ١ "وَنَظَرْتُ لَمَّا فَتَحَ الْخَرُوفُ وَاحِدًا مِنَ الْخُتُومِ السَّبْعَةِ، وَسَمِعْتُ وَاحِدًا مِنَ الأَرْبَعَةِ الْحَيَوَانَاتِ قَائِلًا كَصَوْتِ رَعْدٍ: «هَلُمَّ وَانْظُرْ! » فَنَظَرْتُ، وَإِذَا فَرَسٌ أَبْيَضُ، وَالْجَالِسُ عَلَيْهِ مَعَهُ قَوْسٌ، وَقَدْ أُعْطِيَ إِكْلِيلًا، وَخَرَجَ غَالِبًا وَلِكَيْ يَغْلِبَ. "

آيات ٤، ٣ "وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ الثَّانِيَ، سَمِعْتُ الْحَيَوَانَ الثَّانِيَ قَائِلًا: «هَلُمَّ وَانْظُرْ! » فَخَرَجَ فَرَسٌ آخَرُ أَحْمَرُ، وَلِلْجَالِسِ عَلَيْهِ أُعْطِيَ أَنْ يَنْزِعَ السَّلاَمَ مِنَ الأَرْضِ، وَأَنْ يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأُعْطِيَ سَيْفًا عَظِيمًا. " آيات ٦، ٥ "وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ الثَّالِثَ، سَمِعْتُ الْحَيَوَانَ الثَّالِثَ قَائِلًا: «هَلُمَّ وَانْظُرْ! » فَنَظَرْتُ وَإِذَا فَرَسٌ أَسْوَدُ، وَالْجَالِسُ عَلَيْهِ مَعَهُ مِيزَانٌ فِي يَدِهِ. وَسَمِعْتُ صَوْتًا فِي وَسَطِ الأَرْبَعَةِ الْحَيَوَانَاتِ قَائِلًا: «ثُمْنِيَّةُ قَمْحٍ بِدِينَارٍ، وَثَلاَثُ ثَمَانِيِّ شَعِيرٍ بِدِينَارٍ. وَأَمَّا الزَّيْتُ وَالْخَمْرُ فَلاَ تَضُرَّهُمَا». "

آيات ٨، ٧ "وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ الرَّابِعَ، سَمِعْتُ صَوْتَ الْحَيَوَانِ الرَّابِعِ قَائِلًا: «هَلُمَّ وَانْظُرْ! » فَنَظَرْتُ وَإِذَا فَرَسٌ أَخْضَرُ، وَالْجَالِسُ عَلَيْهِ اسْمُهُ الْمَوْتُ، وَالْهَاوِيَةُ تَتْبَعُهُ، وَأُعْطِيَا سُلْطَانًا عَلَى رُبْعِ الأَرْضِ أَنْ يَقْتُلاَ بِالسَّيْفِ وَالْجُوعِ وَالْمَوْتِ وَبِوُحُوشِ الأَرْض.] (١)

فالفرس الأسود إشارة إلى المجاعات، [فالأكل بميزان يشير لمجاعة، وقد حدث هذا تاريخيا عدة مرات والله يسمح بمجاعات ويكون هذا للتأديب.. والقمح أكل الأغنياء والشعير أكل الفقراء والدينار أجرة العامل في اليوم أي في هذه المجاعة يعمل العامل ليأكل خبزا فقط.] (٢)

---

(١) سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي: ١: ٦-٨

(٢) شرح الكتاب المقدس - العهد الجديد - القمص أنطونيوس فكري الرؤيا ٦ - تفسير سفر الرؤيا https: //st-takla. org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-٠٢-New-Testament/Father-Antonious-Fekry/٢٧-Sefr-El-Ro٢ya/Tafseer-Sefr-Roia-Youhanna-El-Lahouty__٠١-Chapter-٠٦. html]

جاء في موقع (كلمة الحياة) النصراني: [يُقدِّمُ سفر الرؤيا الكتابيّ صورةً نبويَّة قاتمة عن أربعة فرسانٍ يمتطون أحصنةً ذاتِ ألوانٍ مختلِفة (رؤيا١: ٦-٨). وإذا كان الفرسان الثلاثة الأُوَل، أي الأبيض والأحمر والأسود، تميَّزوا بقدراتٍ فائقة حاملين دينوناتٍ إلهيَّة، كان الفرس الرابع ذا صفاتٍ تميَّزت عن الفرسان الأخرى.. فالفرس الرابع تحديدًا لونهُ مائلٌ إلى لون الجسم الميّت ويجلِب الوباء الذي غالِبًا ما يؤدّي إلى الموت. وبالإضافة إلى أوبئةٍ أخرى أتى الكتاب المقدَّس على ذكرها،.. هل هو زمن الأيَّام الأخيرة الذي تضربهُ الويلات والدَّينونات الإلهيَّة؟ إنَّها بدون شكٍّ أيَّامٌ عصيبة ستختبرها الشعوب والأمم الَّذين أخطأوا إلى الله خالِقهم ورفضوا عبادة الإله الحيِّ الحقيقيّ وحدَه. سيستخدم الله حتمًا العوامِل الطبيعيَّة والأرضيَّة لإتمام دينونتهِ المحقَّة وجَلْبِ هذا الدَّهر الإنسانيّ إلى نهايته الحتميَّة.](١)

فالشرور الناشئة من اضطرابات الطبيعة حسب إيمان الكتاب المقدس ماهي إلا نتيجة طبيعية للخطية أو كما يقول القمص أنطونيوس فكري:

. [ليس للشر وجود مجرد أو مستقل، إنه لا وجود له لولا اختيار الإنسان. الخطية هي دائماً سوء استعمال الإنسان لتدبيرات عناية الله التي يمد بها حياة الإنسان على الأرض. إنه ليس من الممكن قط أن نعتبر الله مسؤولاً عن وجود الشر أو عن دخوله الفعلي إلى الحياة البشرية.](٢)

(١) موقع كلمة الحياة: christianlife/٢٧١٦-page١٠، html
https: //www. kalimatalhayat. com/christian-life/١٦٣-purposeofgod- موقع كلمة الحياة]

(٢) شرح الكتاب المقدس - العهد الجديد - القمص أنطونيوس فكري، مصدر سابق.

الخلاصة

إذن يوجد عامل مشترك بين الأديان الوثنية الوضعية واليهودية والمسيحية في إرجاع الظواهر الكونية إلى القوة الإلهية، واختلفت في صفات هذا الإله، وأن الكوارث تقع بسبب أخطاء البشر، أو صراع الآلهة عند البعض. واقتصر تصور اليهودية والمسيحية على أن المصائب تقع بقدر من إله واحد، والسبب فيها الذنوب التي يقترفها الناس.

المطلب الثالث

تفسير المصائب والكوارث في الثقافة المادية العلمية

في مقابل التفسيرات الدينية السابقة، تجد في عصر العلم تفسيرا آخر يقوم على الحس، أو التفسير المادي المشاهد بالبصر لا غير، فالأعاصير: سببها التيارات الهوائية، والطوفان سببه زيادة الماء، والأوبئة سببها الفيروسات التي تنقلها بعض الحيوانات إلى البشر، وهكذا كل كارثة كونية يتم تفسيرها تفسيرا ماديا صرفا، دون ربط بين الكوارث وإرادة الخالق المدبر، أو بينها وبين ذنوب البشر. بل يأنف البعض إذا سمع من يربط بين الكوارث والمنكرات. فما حقيقة هذا التفسير المادي؟

أولا: نفي التدخل الإلهي في الظواهر الكونية

يعتمد التفسير المادي للأحداث والكوارث الكونية على ما تدركه الحواس فقط، حيث يهتم التفكير المادي للأحداث الكونية بالحواس كدليل على الوجود، [بمعنى أنه في عقيدته لايؤمن بشيئ في الوجود غير محسوس، وأن كل ما يدرك بالحس المباشر أو غير المباشر فهو موجود، لأن الحواس في نظره هي الوسيلة الوحيدة الموصلة إلى العلم والمعرفة، وأن المعرفة نفسها حسية جزئية،] [(١)] كما تؤكد المادية كذلك على أن: [ظاهرات الكون، هي مختلف وجوه المادة، التي هي في حركة، إذ أن المادة هي ما يوجد خارج ذهني، وخارج كل ذهن، وليس بحاجة إلى أي ذهن كي يوجد... و يترتب على هذا أن المادة هي الحقيقة الواقعية الأولى التي ليست أحاسيسنا وليس فكرنا إلا نتاجا لها

(١) القرآن الكريم في مواجهة الماديين والملحدين، أحمد عبد الحميد الشاعر، صـ٣٣، دار القلم بالكويت، ١٩٨٢م.

وانعكاسا عنها.. وأن العالم وقوانينه يمكن النفوذ إليها بكاملها من قبل المعرفة التي تراجعها التجربة والنشاط العملي..][١]

وأكد التفسير المادي نفي التدخل الإلهي في الظواهر الكونية، [فقد عرض نيوتن على الدنيا فكرة تثبت أن الكون مرتبط بقوانين ثابتة تتحرك في نطاقها الأجرام السماوية، ثم ما يحدث في الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون معلوم، سموه قانون (الطبيعة) فلم يبق للعلماء ما يقولون بعد هذا الكشف، غير أن الإله كان هو المحرك الأول لهذا الكون، ويضربون مثلا لذلك، أن الكون كالساعة، يرتب صانعها آلاتها الدقيقة في هيئة خاصة ويحركها، ثم تنقطع صلته بها، ثم جاء (هيوم)[٢] فتخلص من هذا الإله الميت][٣] تعالى الله عما يصفون.

ثانيا: الكوارث غضب و انتقام الطبيعة

العلاقة بين الطبيعة والإنسان في هذا الإطار أو الاتجاه المادي ذات جانبين:

جانب الانتفاع من هذه الطبيعة، وجانب العداوة والخصومة، والانتفاع والاستفادة من الطبيعة يعد بمثابة العدوان عليها، ومن ثم إحداث خلل بها، وهذا

(١) انظر: النظرية المادية في المعرفة ماهي؟ روجيه جارودي، ص٦، ترجمة محمد عيناني، دار المعجم العربي بيروت،.

(٢) هيوم: ديفيد هيوم فيلسوف ومؤرخ وعالم اقتصاد اسكتلندي، ولد عام ١٧١١م. في أدنبرة، التحق بجامعة أدنبره في عامه الثاني عشر، وتركها في عامه الخامس عشر، ثم درس السياسة والاقتصاد، وهلك عام ١٧٧٦م.. انظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص٧٢٦-٧٢٧، دار الطليعة بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م.

(٣) الثقافة والطبيعة، محمد سبيلا، وعبد السلام عبد العالي، صـ٥، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩١م. بتصرف.

يترتب عليه الانتقام من الطبيعة نتيجة هذا الخلل، وهذا الانتقام يقع في شكل كوارث وأوبئة. [فإن الطبيعة بجانب كونها كانت مستودع الخيرات الكفيلة بإشباع الإنسان، هي أيضا في حد ذاتها تهديد للإنسان بمظاهر عنفها وقسوتها من حر وبرد، وفيضان، وزلازل، وبراكين، وغيرها... وهنا تصبح وظيفة الثقافة هي حماية الإنسان من عسف الطبيعة واستخراجه لخيراته...] (١)

هكذا يرى الماديون المصائب والكوارث التي تقع في الكون، فهي غضب الطبيعة وانتقامها، وليست من فعل خالق الكون.

فالاتجاه المادي يفسر الكوارث والمصائب على أساس الأسباب المادية العلمية، وإن استلزمت عند البعض وجود قوة محركة لها في أول الأمر ثم انقطعت الصلة بين هذه القوى والكون، إلا أن الفلسفة المادية الإلحادية نظرت إلى الطبيعة على أساس أن القوى كامنة في الأشياء، وهي فاعلة بذاتها، واعتبر هيوم أن الدين ما هو إلا تفسير بدائي للظواهر الطبيعية التي عجز الإنسان البدائي عن فهمها إلا من خلال الألهة (٢). فالماديون ينفون تقدير الله تعالى لما يقع في كونه، هذا من ناحية.

ومن ناحية ثانية – وقد أشار إليها هيوم- هناك التفسير الديني الجاهلي الوثني الذي فسر الكوارث والمصائب والأوبئة ونحوها تفسيرا عجيبا، حيث أرجعوها إلى آلهة متعددة تتصارع فيما بينها، وما يقع على العباد فهو من آثار ذلك الصراع _ كما يرعى

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: الدين والميتافيزيقيا في فلسفة هيوم، محمد عثمان الخشت، صـ١٧، دار قباء، العاشر من رمضان. مصر، د. ت.

الفراعنة-[١] أو من غضب الآلهة على الإنسان إذا قصر في تقديم القرابين مثلا فترسل عليه الكوارث، كما في قصة الطوفان البابلية[٢].

ومن العجب العجاب أن تجد من بعض أهل العلم الدنيوي من أبناء المسلمين، من يردد -كالببغاء- في عصرنا الحديث جهالات التفسير المادي، الذي ينسب الكوارث إلى الطبيعة، لقد قال أحدهم تعليقا على الظواهر الجوية الجامحة: [طالما لم يتوقف البشر عن الإساءة إليها، فلن تكف الطبيعة عن محاربتهم، وعلينا أن نحذر غضبها؛ إذ أصبح أكثر ضراوة][٣]

أي غضب هذا الذي يرد الناس إلى أساطير ترفع عنها الوثني القديم؟

لو كان هؤلاء من الشاهدين لطوفان قوم نوح وفرعون أو صاعقة عاد وثمود، أو حجارة قوم لوط، أو الخسف بقارون، أو الطير الأبابيل، هل كانوا سيقولون قولا غير هذا؟

وأين هم من قوله تعالى: -: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٤]

وقوله تعالى -: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾[٥]

---

(١) انظر: أساطير بابل وكنعان، شارل فيروللو، ص٨٦، تعريب ماجد خير بك، مطبعة الكتاب العربي دمشق. ١٩٩٠م.

(٢) انظر: أساطير بابل وكنعان، شارل فيروللو، ص٢٥، مرجع سابق. وانظر: الآلهة والأبطال في اليونان القديمة، أ. نهاردت، صـ١٤، ترجمة هاشم حمادي، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٤م.

(٣) صيحة تحذير أطلقها أحمد عبد العال -رئيس الهيئة العامة للأرصاد الجوية في مصر- في أول تعليق له على دراسة نشرتها دورية ساينس أدفانسيس "Science Advances" حول ما يُعرف بـ"الظواهر الجوية الجامحة" انظر مقالة محمود العيسوي بتاريخ ٢٧ يوليو ٢٠١٧/ بالموقع الالكتروني (للعلم) :https //www. scientificamerican. com/arabic/

(٤) العنكبوت: ٤٠

(٥) الشورى: ٣٠

المبحث الثاني

تفسير المصائب والكوارث في الثقافة الإسلامية

وإزاء هذه التصورات وتلك التفسيرات القديمة والحديثة التي تظن بالله ظن الجاهلية، يتجلى التصور الإسلامي بصفائه ورونقه وبراهينه، التي تقرر أن المصائب والأوبئة تقع بقدر الله عز وجل وعلمه وإرادته لحكم سامية، وعلى الناس الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية في دفعها، مع الرضا والتسليم لله في قضائه وقدره وحكمته جل شأنه. وبيان ذلك في المطالب التالية:

المطلب الأول

الابتلاء بالشر سنة ربانية (كونية)

خلق الله تعالى شأنه الدنيا، وجعلها دار اختبار وامتحان لعباده، وكان من سنته سبحانه في الأفراد والجماعات، أن يبتليهم بالتكاليف الشرعية، وبما يكرهون من الشرور والمصائب ليمتحن صبرهم، وبما يحبون من الخيرات ليمتحن شكرهم، ويظهر من يفتن، ومن ينجو.. قال تعالى:

﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[١] جاء في تفسير الطبري: [قوله (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً).. ونختبركم أيها الناس بالشر وهو الشدة نبتليكم بها، وبالخير وهو الرخاء والسعة العافية فنفتنكم به.][٢] ويقول الرازي -رحمه الله- مبينا أنواع الابتلاء:

(١)الأنبياء: من الآية: ٣٥.

(٢)تفسير الطبري = جامع البيان ط دار التربية والتراث» (١٨/ ٤٣٩):

[الِابْتِلَاءُ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا مَعَ التَّكْلِيفِ،.. وأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَقْتَصِرْ بِالْمُكَلَّفِ عَلَى مَا أَمَرَ وَنَهَى وَإِنْ كَانَ فِيهِ صُعُوبَةٌ بَلِ ابْتَلَاهُ بِأَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَا سَمَّاهُ خَيْرًا وَهُوَ نِعَمُ الدُّنْيَا مِنَ الصِّحَّةِ وَاللَّذَّةِ وَالسُّرُورِ وَالتَّمْكِينِ مِنَ الْمُرَادَاتِ. وَالثَّانِي: مَا سَمَّاهُ شَرًّا وَهُوَ الْمَضَارُّ الدُّنْيَوِيَّةُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْآلَامِ وَسَائِرِ الشَّدَائِدِ النَّازِلَةِ بِالْمُكَلَّفِينَ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ الْعَبْدَ مَعَ التَّكْلِيفِ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ، لِكَيْ يَشْكُرَ عَلَى الْمِنَحِ وَيَصْبِرَ فِي الْمِحَنِ، فَيَعْظُمَ ثَوَابُهُ إِذَا قَامَ بِمَا يَلْزَمُ.][(١)]

وعن بعض الحكم في الابتلاء بالشر يقول صاحب المنار:

[مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يُرَبِّيهِ وَيُهَذِّبُهُ إِلَّا الشِّدَّةُ وَالْبُؤْسُ، كَمَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُرَبِّيهِ وَيُهَذِّبُهُ الرَّخَاءُ وَالنِّعْمَةُ، وَبِكُلٍّ يَبْتَلِي اللهُ عِبَادَهُ وَيَمْتَحِنُهُمْ كَمَا قَالَ: وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً[(٢)]، وَقَالَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[(٣)]، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَمْ يَزِدْهُمُ الْبُؤْسُ وَالسُّوءُ إِلَّا عُتُوًّا وَإِصْرَارًا عَلَى الْفِسْقِ وَالظُّلْمِ، فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ، وَمَسَخَهُمْ مَسْخَ خُلُقٍ وَبَدَنٍ فَكَانُوا قِرَدَةً بِالْفِعْلِ، أَوْ مَسْخَ خُلُقٍ وَنَفْسٍ، فَكَانُوا كَالْقِرْدَةِ فِي طَيْشِهَا وَشَرِّهَا وَإِفْسَادِهَا لِمَا تَصِلُ إِلَيْهِ أَيْدِيهَا، وَالْأَوَّلُ قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَالثَّانِي قَوْلُ مُجَاهِدٍ قَالَ: مُسِخَتْ قُلُوبُهُمْ فَلَمْ يُوَفَّقُوا لِفَهْمِ الْحَقِّ.][(٤)]

---

(١)تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير» (٢٢/ ١٤٣): بتصرف يسير.، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٠ هـ.

(٢)الأنبياء: من الآية: ٣٥.

(٣) الأعراف: ١٦٨.

(٤)تفسير المنار» (٩/ ٣٢٠):

إذن من سنة الله في نظام الحياة الإنسانية، اختبار عباده بالآلام والأوبئة ونحوها..، ليمتحن إيمانهم بالله ورضاهم به وصبرهم به وله، ولأن الابتلاء بالصحة والعافية والرخاء، لا تظهر حقيقة الإنسان كما تظهرها الشدائد والأمراض.

يقول الإمام الماتريدي في تفسيره:

[إنما يظهر صدق الرجل في إيمانه بما يصيبه من الشدة، فأما السعة والرخاء فهو ما يوافق طبعه وهوى نفسه، فلا يظهر صدقه بما يوافق طبعه، وإنَّمَا يظهر ذلك بما يخالف طبعه ويثقل عليه تحمل ذلك... فمن أقر بالإيمان وقبله، يمتحن بأنواع المحن بموافقة الطبع ومخالفته؛ ليظهر صدقه عند الناس فيعاملونه على ذلك، واللَّه أعلم.][1]

وما أجمل قول ابن القيم في تقرير سنة الابتلاء بالشر، وأنه أمر لازم للنشأة الإنسانية في هذه الدنيا، حيث يقول: [إن ما يصيب المؤمن فى هذه الدار من إدالة عدوه عليه، وغلبته له، وأذاه له فى بعض الأحيان: أمر لازم، لابد منه، وهو كالحر الشديد، والبرد الشديد، والأمراض والهموم والغموم، فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية فى هذه الدار، حتى للأطفال والبهائم، لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين، فلو تجرد الخير فى هذا العالم عن الشر، والنفع عن الضر، واللذة عن الألم، لكان ذلك عالما غير هذا، ونشأة أخرى غير هذه النشأة، وكانت تفوت الحكمة التى مزج لأجلها

(١) «تفسير الماتريدي تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) (٨/ ٢٠٨)، للإمام/ محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)ت: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

بين الخير والشر، والألم واللذة، والنافع والضار، وإنما يكون تخليص هذا من هذا، وتمييزه فى دار أخرى، غير هذه الدار.][1]

وإذا كان البلاء بالشر سنة ماضية، يقع على خلق الله جميعا مؤمنهم وكافرهم، إلا أن أهل الإيمان أخف بلية، لما عندهم من إيمان، يدفع الله به عنهم، فإن كان لابد من الابتلاء، فإن الله تعالى يرزق المؤمنين من قيم: الرضا والصبر والتوكل والتسليم لقدر الله، ما يجعل البلاء عليهم أخف محنة، بخلاف الكافرين والمنافقين، حيث تكون محنتهم شديدة، فيصابون بأمراض نفسية قد تدفع ببعضهم إلى الانتحار، أما المؤمن فينظر إلى المصائب والكوارث على أنها ابتلاء، وسنة ربانية، ومن ثم يدرك رسالة ربه في ذلك، فيكون حاله مع الأخذ بالأسباب، القيام بالعبادة الواجبة في هذه الحالة، وهي اليقين بالله والصبر والاحتساب، لا الهلع والجزع أو الانتحار، الذي يلجأ إليه من لا يدرك أن االمصائب والكوارث ابتلاء، وسنة لابد منها.

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (٢/ ١٨٩):

المطلب الثاني

الابتلاء بالمصائب والكوارث لحكم إلهية سامية

مما لا شك فيه، أن ما يقع بخلق الله من المصائب والكوارث له حكم، فتعالى الله عن العبثية، ولعل من هذه الحكم ما يلي:

أولا: وقوع البلاء عقوبة

قد تقع المصائب والشرور لأسباب كونية، ولا دخل فيها لأعمال الإنسان، وإنما هي سنن كونية، وعلى العقل المسلم في هذه الحالة النظر والملاحظة لاكتشاف الأسباب والمسببات، ومراعاة القوانين التي وضعها الله لكونه، وفي المقابل بين الشرع الحكيم أن بعض المصائب والكوارث تقع بما كسبته أيدي الناس، فمثلا قد تقع الأوبئة بسبب عوامل بشرية محضة، أو تتفاعل العوامل البشرية مع العوامل الطبيعية، كتغير المناخ أو القحط والجفاف، ويفاقم الإنسان بسوء أعماله من حدة هذه الآفات، فتحدث المجاعات وتتفشى الأوبئة التي تحصد الناس حصدا.

ولنا في النصوص الشرعية والشواهد التاريخية ما يقرر هذه المعاني، ونقتطف منها ما يلي:

أ: دلالة القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ

(١) [الروم: ٤١].

تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (١) وقال جل شأنه: وقالَ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُون﴾ (٢)

وقال عز وجل: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾(٣)

وقال: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾(٤)

وقال تعالى في قصة أُحُدٍ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هذَا؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(٥)

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾(٦)

فهذه الآيات الكريمة واضحة الدلالة في ربط الشرور والمصائب بما كسبت أيدي الناس، فهذا بلا ريب من شؤم المعاصي(٧).

ومن ثم يتقرر أنه: على البشر أن يلاحظوا أحوالهم، وأن يحاسبوا أنفسهم، وأن يدركوا أن ما يصيبهم من البؤس والفقر والأوبئة الفاتكة، والكوارث المدمرة، قد تكون جزاء على ما اقترفوه من الشرك والآثام، وأن الجزاء على الآثام ليس مقصورا على الجزاء

(١) [الشورى: ٤٨]
(٢) [الروم: ٣٦].
(٣) [النساء: ٧٩].
(٤) [الشورى: ٣٤]
(٥) [آل عمران: ١٦٥].
(٦) [آل عمران: ١٥٥].
(٧) لمزيد من تقرير هذه الحقيقة انظر: «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (٢/ ١٨٦):

في الآخرة فقط، فالله عز وجل قد يصيبهم بما هو جزاء لهم في الدنيا، كما وقع لقريش من القحط والجوع جراء ما اكتسبوه من الإيذاء للنبي (ﷺ)، ومن معه. [١] وقد قال الله تعالى لقريش: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾[٢] وكذلك ما وقع لفرعون وقومه من قبل قريش.

ولعل من المناسب هنا أن أعرض توضيحا يسيرا، من قصص القرآن الكريم الذي يبين العلاقة بين المصائب والعقوبات الدنيوية بسبب المعاصي وسوء الأعمال، وذلك من خلال ماحدث لفرعون وقومه من آفات ومصائب بسبب موقفهم السلبي من دين الله تعالى.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [٣]

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره:

[قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون.. أنها على عادته وسنته في الأمم، أن يأخذهم بالبأساء والضراء، لعلهم يضرعون.. {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ} أي: بالدهور والجدب، {وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم، لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد] [٤]

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢٥/ ٩٨).

(٢) سُورَة الشورى: ٣٠

(٣)الأعراف: ١٣٠.

(٤)«تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٠١):

وجاء في تفسير الزمخشري[بِالسِّنِينَ بسنى القحط.. وقال ابن عباس رضى الله عنه: أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم، وأمّا نقص الثمرات فكان في أمصارهم.][(١)]

وهذا القحط والجدب والنقص في المحاصيل الزراعية، لم يقتصر ضرره على الحاكم الظالم وبطانته وأعوانه فقط، بل استوعب الراعي والرعية، ولعل تضرر الرعية أشد من الضرر الذي لحق فرعون وحاشيته، لأنهم غالبا يستأثرون بالخيرات ويدخرون.

ويبين صاحب المنار من هم آل فرعون، ويكشف النقاب عن سبب تعذيبهم بالبلاء مع فرعون فيقول:

[وآلُ فِرْعَوْنَ: قَوْمُهُ، كَمَا أَطْلَقَهُ الْمُفَسِّرُونَ، أَوْ خَاصَّتُهُ وَأَعْوَانُهُ فِي أُمُورِ الدَّوْلَةِ، وَهُمُ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ..، وَوَجْهُهُ أَنَّهُمْ هُمُ الْمُذْنِبُونَ الْمُعَانِدُونَ لِمُوسَى، وَإِنَّمَا وُقُوعُ الْعَذَابِ عَلَى غَيْرِهِمْ بِالتَّبَعِ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُوَافِقِينَ وَمُقِرِّينَ لَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾[(٢)] وَهَذِهِ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ الْعَامَّةِ،... وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ عَامَّةَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ يَنَالُهُمْ مِنْ عَذَابِ الْأَخْذِ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ مَا لَا يَنَالُ فِرْعَوْنَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَخَاصَّةً مَلَئِهِ، فَالْمُرَادُ بِآلِهِ قَوْمُهُ، وَهُمْ أَهْلُ مِصْرَ فِي عَهْدِهِ، وَهُمْ مُؤَاخَذُونَ بِظُلْمِهِ وَطُغْيَانِهِ؛ لِأَنَّ قُوَّتَهُ الْمَالِيَّةَ وَالْجُنْدِيَّةَ مِنْهُمْ، وَقَدْ خَلَقَهُمُ اللهُ أَحْرَارًا وَكَرَّمَهُمْ بِالْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ الَّتِي تَكْرَهُ الظُّلْمَ وَالطُّغْيَانَ بِالْغَرِيزَةِ، فَكَانَ حَقًّا

(١)«تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل» (٢/ ١٤٤):

(٢) الأنفال من الآية: ٢٥.

عَلَيْهِمْ أَلَّا يَقْبَلُوا اسْتِعْبَادَهُ لَهُمْ، وَجَعْلَهُمْ آلَةً لِطُغْيَانِهِ وَإِرْضَاءِ كِبْرِيَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ بِعْثَةِ مُوسَى وَوُصُولِ دَعْوَتِهِ إِلَيْهِمْ وَرُؤْيَتِهِمْ، لَمَّا أَيَّدَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ.][1]

إذن عندما تكون العامة من الناس راضية بالعبودية لغير الله تعالى، خاضعة لصنم في صورة بشر، ويصبح هؤلاء يده التي يبطش بها ظلما وعدوانا، فلابد أن تؤدب هي الأخرى بالتحدي السماوي، ومنها حرب المياه، وما يترتب عليها من القحط، ونقص الثمرات الذي يلهب ظهورها، علها ترجع إلى الله وتستقيم، ومن لم ترجعه الكلمة ترجعه عصا القدر.

وبالرغم من نزول القحط، وما ترتب عليه من قلة المحاصيل الزراعية، إلا أن قوم فرعون لم يتذكروا ولم ينتبهوا إلى أن ماهم فيه من بلاء سببه الكفر، وإعانتهم لفرعون، ومتابعتهم له في ظلمه وإفساده، ورضاهم ببغيه وعدوانه، فأصابهم الله تعالى بعقوبات أشد إيلاما.

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[2]

وجملة معنى الآية كما يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: [{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ} أي: الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم، وأضر بهم ضررا كثيرا [3]{وَالْجَرَادَ} فأكل ثمارهم وزروعهم، ونباتهم {وَالْقُمَّلَ} قيل: إنه الدباء، أي: صغار

(١)«تفسير المنار» (٩/٧٤- ٧٦) باختصار كبير.

(٢) الأعراف: ١٣٣، ١٣٤.

(٣) لم أعثر على هذا في سفر الخروج، وهذا مما يتميز به القرآن الكريم.

الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف {وَالضَّفَادِعَ} فملأت أوعيتهم، وأقلقتهم، وآذتهم أذية شديدة {وَالدَّمَ} إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين، أن ماءهم الذي يشربون انقلب دما، فكانوا لا يشربون إلا دما، ولا يطبخون إلا بدم.

{آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ} أي: أدلة وبينات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى، حق وصدق {فَاسْتَكْبَرُوا} لما رأوا الآيات {وَكَانُوا} في سابق أمرهم {قَوْمًا مُجْرِمِينَ} فلذلك عاقبهم الله تعالى، بأن أبقاهم على الغي والضلال.

{وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ} أي: العذاب، يحتمل أن المراد به: الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، فإنها رجز وعذاب، وأنهم كلما أصابهم واحد منها﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ} أي: تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشرع، {لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}﴾[1] وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا إذا رفع لا يصيبهم غيره.][2]

تبين إذن أن المجاعة التي تعرضوا لها، كانت بسبب الآفات والظواهر الطبيعية، ويترتب على المجاعات عادة ظهور الأوبئة والطواعين، بسبب سوء الأغذية، وأكلها مع فسادها لندرتها، وكل تلك المصائب عقوبة بسبب عبوديتهم لغير الله تعالى، وبظلمهم لفئة من المجتمع آنذاك، ومعارضتهم لنبيهم الذي تأكدوا صدقه واستيقنوا ذلك في أنفسهم.

(١) الأعراف، من الآية: ١٣٤.

(٢) «تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٠١):

ومن جهة أخرى، يقرر القرآن الكريم، أن للطاعات أثرها كذلك في حصول الخيرات، والنعم، والبركات.

يدل على هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (١)

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (٢)

وقوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ (٣)

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ (٤)

لكن ينبغي التنبيه إلى أنه لا يمكن تحديد أن هذا الشر المعين أو ذاك الوباء قد وقع بسبب المعصية كذا، أو بسبب معاصي الناس عموما، لأن هذا غيب، ولا يمكن معرفته إلا بوحي.، لكن هناك علاقة بين المصائب والمعاصي عموما، ويكفي هذا في تصور المسلم ليبني عليه منهج التعامل مع المصائب والكوارث والأوبئة، فيجمع بين الأخذ بالأسباب الإيمانية الشرعية، والأسباب الكونية العلمية.

(١) [الأعراف: ٩٦-٩٧]
(٢) [المائدة: ٦٦]
(٣) [نوح: ١٠-١٢]
(٤) [هود: ٣]

ب: دلالة السنة

ثبت في السنة كذلك، أن بعض الكبائر تجلب الأمراض والكوارث الكونية والمصائب على الناس، ففي سنن ابن ماجة

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ)، فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:

لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.

وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.

وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ"] (١)

فهذه كبائر كما ترى في مجال (الأخلاق)، المجاهرة بالزنا والفواحش التي تجلب الطاعون.

يقول ابن القيم: [وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَمْكِين النِّسَاءِ من اختلاطهنَّ بالرِّجال أصل كل بلية وشر، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنَّه من أسباب فساد أمور

(١) سنن ابن ماجه ت الأرنؤوط» رقم (٤٠١٩) (٥/ ١٥٠): وأخرجه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٦٧١)، والحاكم (٨٦٢٣) باختلاف يسير.

العامة والخاصة، واختلاط الرِّجال بالنِّساءِ سبب لكثرة الفواحش والزنا، وهو من أسباب الموت العام، والطواعين المتصلة.

ولما اختلط البغايا [١] بعسكر موسى، وفشت فيهم الفاحشة، أرسلَ اللهُ تعالى عليهم الطاعون، فمات في يومٍ واحد سبعون ألفًا، والقصة مشهورة في كتب التفاسير [٢].

فمن أعظم أسباب جلب الموت العام: كثرة الزنا، بسبب تمكين النِّساء من اختلاطنَّ بالرِّجال، والمشي بينهم متبرجات متجملات، ولو علم أولياء الأمر ما في ذلك من فساد الدنيا والرعية - قبل الدين - لكانوا أشد شيء منْعًا لذلك. قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: "إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا والرِّبَا في قَرْيَةٍ أَذِنَ اللهُ بِهَلَاكِهَا"[٣] [٤]

. ومن أسباب العقوبات العامة في مجال الاقتصاد التي وردت في الحديث السابق- السرقة في البيع والشراء، وهذه تتسبب في القحط وقلة الماء وظلم الولاة، وكذلك منع الزكاة يمنع المطر،

. وفي مجال الاجتماع والسياسة -خيانة العهود والمواثيق، وتعطيل الشريعة يترتب عليه مظالم وشرورلا تندفع، والعدل بلا ريب إذا ساد عاش المجتمع في أمن وسلام،

(١) جمع بغي وهي الزانية. تحفة الأحوذي (٤/ ١٩٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ١٢٣)، تاريخ الطبري (١/ ٢٥٦)، تفسير ابن كثير (٣/ ٥١٠)، تفسير القرطبي (٧/ ٣١٩).

(٣) رواه ابن عبد البر في «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» (٢٤/ ٣٠٧) بإسناده عن ابن مسعود مرفوعًا،.

(٤) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١)، (٢/ ٧٢٤). المحقق: نايف بن أحمد الحمد، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ

وعدم تنفيذ حكم الله هو الظلم والاضطراب والفساد. ومن ثم تحدث الثورات والاضطرابات الداخلية وتضعف الدولة، ثم تستباح من عدوها الخارجي، فيحتل أرضها وتنهب ثرواتها. والواقع الماثل خير شاهد.

ومن الأسباب التي تجلب العقاب الجماعي كذلك، إحجام الناس عن الأخذ على يد الظالم، ورؤية المنكرات وعدم تغييرها، مع القدرة على ذلك، فهنا يوشك الله عز وجل أن يعم الجميع بعقاب من عنده يشمل الظالم والفاعل للمنكر، والذين لم ينهوا فعله ومنكراته.

أخرج أبو داود بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: [.. يا أيها الناسُ، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها: {عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}(١)، وإنا سمعنا النبيَّ ﷺ، يقول: "إنّ الناس إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا على يدَيه أوشك أن يعُمَّهم الله بعقاب". وقال عمرو، عن هُشَيم: وإني سمعت رسولَ الله ﷺ، يقول: "ما مِن قومٍ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي، ثم يَقدِرُونَ على أن يُغيّروا، ثم لا يُغيَّروا إلا يوشِكُ أن يعمَّهُمُ الله منه بعقاب"](٢)

ولا شك أن عدم منع النساء من الاختلاط بالرجال متبرجات بزينة، من أعظم أسباب انتشار الفواحش، فإذا قصر ولاة أمر المرأة في تربيتها، أو عجزوا، فالمسؤلية هنا تقع على ولاة الأمر، فبأيديهم مؤسسات التربية والتعليم، والإعلام، وتشريع العقوبات

(١) [المائدة: ١٠٥].

(٢) سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، رقم(٤٣٣٨)، (٦/ ٣٩٤، ٣٩٣)، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

وتنفيذها، وبذلك تتكامل مؤسسات الدولة في التربية على الفضائل، ومحاربة المنكرات والرذائل.

ج: دلالة التاريخ

إن قصص الأنبياء السابقين مع قومهم، يكشف بجلاء ويقين، أن المعاصي والذنوب، كانت سببا في أخذهم وقطع دابرهم بكوارث طبيعية، قال تعالى: ﴿فَكُلاً أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [١] فالحاصب: لقوم لوط، وهي ريح عاصف فيها حصباء. وقيل: ملك كان يرميهم. والصيحة: لمدين وثمود. والخسف: لقارون. والغرق: لقوم نوح وفرعون. [٢]

هذا في التاريخ الغابر، أما في تاريخنا الإسلامي فقد وقعت موجات من المجاعات والأوبئة والكوارث، بقليل من التأمل في بعضها تجد أنها لم تنزل من السماء بغتة، ولكن كان السلوك الإنساني- خاصة في المجال السياسي وغياب الحكم الراشد القائم على العدل، وعدم تولية النابهين الأكفاء- سببا في الاضطرابات السياسية والخروج على الحكام، وما يترتب على ذلك من تعطل للمصالح، وإهمال للإنتاج، وندرة في الأغذية، وإهمال للمرافق فتحل المجاعات وتتفشى الأوبئة والطواعيين بما كسبت أيدي الناس، لا بسبب الجفاف الطبيعي فقط والذي يستطيع الإنسان التغلب على آثاره بتخزين الأطعمة كما فعل نبي الله يوسف – عليه السلام- أو بالترحال خلف الماء والكلأ.

(١) سورة العنكبوت: (٤٠).

(٢) انظر: «تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل» (٣/ ٤٥٤):

ويبين ابن خلدون أثر الاضطرابات السياسية، وعدم استقرار الدولة في وقوع المجاعات والأوبئة فيقول:

[إنّ المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدّول والسّبب فيه: إمّا المجاعات: فلقبض النّاس أيديهم عن الفلح في الأكثر، بسبب ما يقع في آخر الدّولة من العدوان في الأموال والجبايات، أو الفتن الواقعة في انتقاص الرّعايا وكثرة الخوارج لهرم الدّولة، فيقلّ احتكار(أي تخزين) الزّرع غالبا، وليس صلاح الزّرع وثمرته بمستمرّ الوجود ولا على وتيرة واحدة،.. والمطر يقوى ويضعف، ويقلّ ويكثر، والزّرع والثّمار والضّرع على نسبته، إلّا أنّ النّاس واثقون في أقواتهم بالاحتكار، فإذا فقد الاحتكار عظم توقّع النّاس للمجاعات فغلا الزّرع وعجز عنه أولو الخصاصة(الفقر) فهلكوا، وأمّا كثرة الموتان فلها أسباب

من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدّولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء] (١)

إذن في المراحل الانتقالية للدولة تكثر الفتن لهرم الدولة، وتدخل في صراع داخلي، ويتعذر تخزين الزروع فتقع المجاعات، وتهزل صحة الناس للفقر الغذائي فتظهر الأوبئة القاتلة. وهي كارثة طبيعية.

وفي دراسية تاريخية عن المجاعات والأوبئة في المغرب العربي في العصر الوسيط للباحث الحسين إسكان يقول: [تساهم الحروب في تفاقم المجاعات والأوبئة، إن لم

(١) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر «تاريخ ابن خلدون»، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ) صـ(١/ ٣٧٦): المحقق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

تسهم في خلقها مثلما حدث في بجاية ٥٨١هـ اثناء حدوث ثورة بها، اشتدت المجاعة والوباء، وعم الموتان، وعجز أهل البلد عن تكفين الموتى، وعن مواساة الأحياء، فكانوا يصبحون في الخرب وفي سكك المدينة زمرا أمواتا...

ومن المجاعات الناتجة عن حصار المدن كذلك، المجاعات التي تعرضت لها مراكش مرتين سنة ٥٤١هـ، أثناء حصار الموحدين لها، وسنة ٦٣٢هـ عندما حاصرتها قبيلة الخلط، وكلما تزايدت الحروب والفتن، ارتفعت وتيرة معدلات تكرار المجاعات والأوبئة...

فهذه المجاعات والأوبئة لم تكن للظروف الطبيعية وحدها، بقدر ما كانت للحروب بين المرابطين والموحدين والتي نتج عنها هجرة السكان، وغلاء الأسعار،..

والاضطرابات الناتجة عن حروب الدولة القائمة مع الثائرين عليها تتسبب في أربعة أمور:

١- فرار الرعية عن الأراضي الزراعية..

٢- خراب العمران والمنشآت الفلاحية..

٣- انقطاع الطرق وصعوبة تزويد المناطق المتضررة بالحبوب

٤- وعند انعدام الطرق، تنعدم المرافق، فترتفع الأسعار الغذائية بشكل يتضرر منه ذوي الدخل المحدود، فيحدث الوباء الذي لا يكون إلا بأثر الغلاء، فهو لازم من لوازمه.][1]

(١) المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية والجائحة الإنسانية خلال العصر الوسيط شمال المغرب، أسكان، الحسين، (١٤٣-١٥٠)باختصار كبير وتصرف يسير، بحث مؤتمر للجمعية المغربية للبحث التاريخي-المغرب. ٢٠٠٢م.

• ومن أطباء المغرب الذين احتفظ التاريخ باسمهم- في القرن التاسع الهجري- أبو الحسن علي بن عبد الله بن هيدر التازي، (المتوفّى سنة ٨١٦ هـ) ألف رسالة بعنوان(المقالة الحكمية في الأمراض الوبائية)[١] أكد فيها أن أصول الوباء تعود في شق منها إلى فساد الهواء... وأضاف أسبابا أخرى متعلقة بالغذاء لا بالجهاز التنفسي فقط كما قال السابقون، حيث ربط بين الجفاف وقلة الغذاء التي تدفع الناس إلى عدم الاحتياط، مما يسبب الوباء،.. ففساد الأغذية المستعملة في زمن المجاعات وغلاء الأسعار، يضطر الإنسان إلى تناول غذاء غير مألوف قد فسد وتعفن لطول زمانه، فيفسد المزاج من هذه الأغذية، وتحدث الأمراض القاتلة.

وكأن ابن هيدر التازي رحمه الله يضع علة جديدة في ظهور الوباء حين يقرر أن الجفاف أو الحرب يسببان الغلاء، والغلاء يؤدي إلى المجاعة، وهي بدورها تسبب الوباء. (٢)

هذا الطبيب المغربي وصل إلى نتيجة، بل أسس لقاعدة علمية تتعلق بالأوبئة تقول: إن هذا الوباء لازِم من لوازم الغلا، والغلا لازِم من لوازم احتباس المطر أو الفتن والحروب الدائمة، ومما لا ريب فيه أن عدم خضوع المسلمين لأحكام الله هو سبب ما ينزل بهم من فتن وحروب، فالإعراض عن حكم الله تعالى إعراض عن العدل، وأي

(١) وقيل تسمى أيضا: «المسألة الحكميَّة في الأمراض الوبائيَّة» (توجد مخطوطتها الآن بالخزانة الحسنيَّة بالرباط، تحت عدد: ٩٦٠٥). انظر: أدبيات الأوبئة عند المسلمين، سفيان البالي، مقالة منشورة في موقع منشور(https: //manshoor. com/)بتاريخ ٢٠١٨/٩/١٨م.

(٢) انظر: المصدر السابق.

جماعة تعرض عن العدل والقسطاس مآلها الخراب والدمار، وذهاب القوة، وإصابتها بالذلة، فلا عزة إلا عزة الحق، ولا ذلة إلا في الظلم. (١)

تبين مما سبق أن وقوع المجاعات والأوبئة والكوارث، لم يكن السبب الرئيس فيها الظروف المناخية بقدر ماكان من الصراعات بين الأخوة في الدين، لأسباب أو علل لحقت بالنظام السياسي، الذي يرى فيه الناس غالبا عنصرية، أو استبدادا يثمر تفاوتا هائلا في الثروات بين الحكام والمحكومين، مما يدفع إلى الاضطرابات والثورات، وتلك تؤدي بدورها إلى المجاعات وظهور الأوبئة وغيرها من المصائب والكوارث، عقوبة لما اكتسبته أيدي الناس.

والأزمات السياسية تخلق أزمات اقتصادية يتضرر منها الناس في معايشهم. وبالتالي يكون رفع هذا النوع من الوباء، بالرجوع إلى الله تعالى، وإصلاح العلل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تحمي المجتمع من الفتن والاضطراب، وتقيه كذلك من إهمال الفرائض العينية والكفائية بصفة خاصة، أو الانهماك في اللذات والمعاصي وشيوع الفواحش التي تجلب العقوبات العامة على المجتمع، مع الأخذ بالإجراءات الطبية والعلمية في مواجهة الكوارث.

ومما ينبغي علمه في هذا الشأن أنه ليس كل مصيبة تقع بالإنسان تكون عقوبة، لأن المصيبة أعم من العقوبة، فكل عقوبة مصيبة، وليس كل مصيبة عقوبة، وتوضيح هذا في الفقرات التالية.

(١) انظر: «زهرة التفاسير» (٤/ ٢٢٣٥).

ثانيا: وقوع البلاء اختبارا وتطهيرا ورفعة

إذا تقرر أن المصائب والكوارث والشرور تكون عقوبة، وذلك إذا كانت بسبب من الإنسان عند مخالفته لمنهج الله تعالى، أو إهمال القائمين بالأمر، إذ لم يستخدموا ذكاءهم الموهوب من الله- لمواجهة القحط مثلا - لاستخراج رزقهم وأقواتهم التي قدرها الله لعباده في الأرض لمواجهة المجاعات التي تتلوها وباءات عامة. لكن هنا يثار سؤال للإنسان، لماذا تنزل البلايا والمصائب إذن بأهل الايمان والصلاح؟

وكيف نزل وباء (الطاعون) مثلا على أصحاب النبي (ﷺ)، وهم خير القرون والمجاهدون لنصرة دين الله في الشام؟ ما الحكم الإلهية في ذلك؟

هذا سؤال حير البعض، بل هو فتنة للبعض، قديما وحديثا، حتى قال أحدهم معترضا على قضاء الله وقدره في الأرزاق:

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل..... وترزق مجنونا وترزق أحمقا

فلا ذنب يا ربّ السماء على امرىء... رأى منك ما لا يشتهي فتزندقا[1]

و قد وصل الأمر بجهم بن صفوان(٢) إلى الإلحاد في صفات الله، فأنكر رحمته وحكمته، حيث كان يأخذ أصحابه إلى المصابين بوباء الجزام وأهل البلاء.، ويقول انظروا، أرحم الراحمين يفعل مثل هذا؟ إنكارا لرحمته، كما أنكر حكمته. (١)

فهؤلاء يتهمون أرحم الراحمين، إذا ضاقت أرزاقهم أو مرضت أبدانهم. وغفل هؤلاء عن رحمة الله وحكمته في تقديره نزول البلايا والكوارث والأوبئة بالمسلمين، وقد كتب أهل العلم فوائد كثيرة في المصائب والبلايا، والمقام لا يتسع للاستفاضة في ذلك،

---

(١) البيت لأبي العلاء المعري، انظر: «معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» (١/ ٣٣٨):

(٢) جَهْم بن صَفْوان السمرقندي، أبو محرز، رأس (الجهمية) قال الذهبي: الضالّ المبتدع، هلك في زمان صغار التابعين ١٢٨ هـ، وقد زرع شرا عظيما، انظر: «الأعلام للزركلي» (٢/ ١٤١).

ولكن أشير إلى بعض ما ذكره أهل العلم في حكمة نزول البلاء بالمؤمنين على النحو التالي:

أ- البلاء رحمة من الله تعالى للمؤمن

يوضح لنا ابن القيم هذا المعنى فيقول: [ومما ينبغى أن يعلم: أن الرحمة صفة تقتضى إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه. فهذه هى الرحمة الحقيقية فأرحم الناس بك من شق عليك فى إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك.

فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه فى ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التى تعود بضرره، ومتى أهمل من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه [ويرفّهُهُ] ويريحه. فهذه رحمة مقرونة بجهل،.. ولهذا كان من إتمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته: من رحمته به ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه..

ومن رحمته: أن نغص عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها ويرغبوا فى النعيم المقيم فى داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم..][٢] والناظر في واقعنا اليوم، وما يقع فيه من حروب ودمار، وإزهاق للأرواح، وتشريد لملايين البشر من أوطانهم،

(١). انظر: «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (٢/ ١٧٧):

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (٢/ ١٧٥، ١٧٤)، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

ماهو إلا بسبب قلوب لم تتأدب، وتعلقت تلك القلوب بالدنيا وشهواتها ومناصبها، وثرواتها، والاطمئنان إليها، والغفلة عن الآخرة، فتلك جرثومة الفساد التي أماتت قلوب البعض، فطغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وابتكروا أحدث الآلات، لارتكاب أفظع الجنايات.

أما من طهر الله قلوبهم من التعلق بالدنيا، بنور الإيمان، ونار الابتلاء والامتحان، فصاروا كالتبر المسبوك، يخرجون من كل بلاء، خروج السيف بعد الجلاء، فلا يستهويهم مطمع من مطامعها، وإنما همهم الآخرة وبغيتهم الجنة، فهؤلاء كما يقول أبو الحسن الندوي في وصف أصحاب النبي بعد تربيتهم على الإيمان وتحمل البلايا والمحن: [.. أصبحوا في الدنيا رجال الآخرة وفي اليوم رجال الغد. لا تجزعهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى ولا تلهيهم تجارة ولا تستخفهم قوة، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً. وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين. وطَّأ لهم أكناف الأرض، وأصبحوا عصمة للبشرية، ووقاية للعالم وداعية إلى دين الله.][1]

فهذا بلا ريب، من روائع الإيمان والصبر والتحمل للمحن والشدائد والبلايا التي طهرت قلوبهم من التعلق بالدنيا، وإيثارها على الآخرة.

ولهذا رأينا روائع تعامل الصحابة مع طاعون عمواس، والنظر إليه على أنه رحمة من الله تعالى ما رواه أحمد في مسنده: [.. لما اشتعل الوجعُ قام أبو عبيدةَ بن الجراح في الناس خطيبًا، فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع رحمةُ ربكم، ودعوة نبيكم، ليموت

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (ص٨٥)، علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة الإيمان، المنصورة – مصر.

الصالحين قبلَكم، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يَقسم له منه حظه، قال: فطعِنَ، فمات رحمه الله، واستُخلف علىِ الناس معاذُ بن جبل، فقام خطيبًا بعده، فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع رحمةُ ربكم، ودعوة نبيكم، وموتُ الصالحين قبلَكم، وإن معاذاً يسأل الله أن يقسمِ لآل معاذ منه حظه، قال: فطُعن ابنه عبد الرحمن بن معاذ، فمات، ثم قام

فدعا ربه لنفسه، فطُعن في راحته، فلقد رأيته ينظر إليها ثم يقبل ظهرَ كفّه، ثم يقول: ما أُحبُّ أن لى بما فيك شيئاً من الدنيا،][1] والبلاء قد يكون رحمة لبعض العصاة كذلك، من حيث إنهم إذا نزلت بهم المصيبة وهم على فسق وفجور ينتبهون إلى تقصيرهم، ويفكرون في الذنوب التي أوجبت تلك المصيبة، فيرجعون إلى الله ويتوبون إليه قبل أن يدركهم الموت، فيكون البلاء في حقهم رحمة، وإن كانت في الأصل عقوبة على معاصيهم.

ب- البلاء اختبار للإيمان

لله تعالى على عبده عبودية في السراء والضراء، والمؤمن حقا، هو الذي يقوم بالعبودية في الحالين، أما ضعيف الإيمان، فإنه إن كان في خير وسرور، فهو مطيع لله، فإذا أصابه شر أو نزل به مكروه، انقلب إلى الضد، فصار لله عاصيا، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ

(١) «مسند أحمد» (٢/ ٣٢٨): أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[١]

جاء في تفسير الشيخ الشعراوي:

[يعبد الله على حرف يعني: لم يتمكَّن الإيمان من قلبه، وسرعان ما يُخرِجه الابتلاء عن الإيمان، لأنه عبد الله عبادةً غير متمكنة باليقين الذي يصدر عن المؤمن بإله حكيم فيما يُجريه على عبده.][٢]

فالعابد لله حقا، ثابت على إيمانه في جميع أحواله، لأن الله تعالى: [: يربى عبده على السراء والضراء، والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته فى جميع الأحوال... وأما عبد السراء والعافية الذى يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته. فلا ريب أن الإيمان الذى يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاءِ والعافية.

فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه:][٣]

فالبلاء في نظر المؤمن ليس تعذيبا من الله تعالى لعبده المؤمن، وإنما هو تربية له على العبودية والاستسلام في الرخاء والشدة، واستخراج لهذه العبودية في السراء والضراء سواء بسواء، وتمحيص لإيمانه حتى يصبح خالصا ثابتا. فحاشا لله- أن يؤذي

(١) [الحج: ١١]
(٢) «تفسير الشعراوي» (١٦/ ٩٧٢٦)
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص٢٧٧).

عبده المؤمن بالفتنة، أو يعذبه بالابتلاء، ولكنه الإعداد لتحمل أمانة هذا الدين والتي تحتاج إلى تكوين نفسي وعقلي وجسدي خاص، لا يتحقق إلا بالمعاناة والصبر على المشاق والاستعلاء على الشهوات، فالنفس تطهرها وتصقلها الشدائد التي تنفي عنها الخبث.

فكما لا يستقيم البدن إلا بالجوع والعطش والنصب، وأضدادها، والحر والبرد، فكذلك الرخاء والعافية، والشدة والبلاء تحقق الاستقامة للقلب، فيصقل ويقوى لحمل أمانة الله، وتحمل تبعاتها.

ج-البلاء تطهير للمؤمن

ومن فوائد البلايا والمحن كذلك، أنها تطهر العبد المؤمن من أخطائه، فلا يخلو مؤمن من تقصير سواء في العلم بالله ودينه، أو العمل بما علم من الدين. يقول ابن القيم: [فإن العبد كثيرا ما يترك واجبات لا يعلم بها، ولا بوجوبها، فيكون مقصرا فى العلم، وكثيرا ما يتركها بعد العلم بها وبوجوبها، إما كسلا وتهاونا، وإما لنوع تأويل باطل، أو تقليد، أو لظنه أنه مشتغل بما هو أوجب منها، أو لغير ذلك، فواجبات القلوب أشد وجوبا من واجبات الأبدان، وآكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس، بل هى من باب الفضائل والمستحبات.

فتراه يتحرج من ترك فرض أو من ترك واجب من واجبات البدن، وقد ترك ما هو أهم من واجبات القلوب وأفرضها، ويتحرج من فعل أدنى المحرمات، وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريما وأعظم إثما.][1] وبناء على هذا فمن الغرور أن

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (٢/ ١٨٠):

يظن المرء بنفسه خيرا، وأنه غير مقصر في حقوق الله أو حقوق عباده، فكم من عباد الله من يعتقدأنه قائم بالمأمور ظاهرا وباطنا، وتارك للمحظور باطنا وظاهرا، وهو جاهل بحقوق الله عليه، وجاهل بما معه من تدين مغشوش، بل كم من المسلمين من زين له سوء عمله فرآه حسنا؟ وحسن ظن المرء بنفسه وتزكيته دليل على جهله بنفسه، لهذا تكون البلايا في نظر المؤمن الصادق، والصبر عليها من وسائل التطهير قبل المحاسبة في الآخرة. وأخرج البخاري بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: [: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا؟ قَالَ: «أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ» قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»][(١)]

وفي سنن الترمذي [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»] [(٢)]

فتأمل قوله (ﷺ)،: (حتى يلقى الله) أي أن البلاء لا يزال نازلا على المؤمن والمؤمنة حتى يلقى الله تعالى، وأنه في كل بلية يلقاها يحط ويضع من ذنوبه، حتى يلقى الله وقد سقطت عنه الأوزار، ونفض عن كاهله أثقالها، فيلقى الله نقيا من الذنوب، وبهذا يزول الإشكال الذى يورده من لا فقه له حين يسأل قائلا: أنا أعبد الله كثيرا، ومع ذلك تنهال علي المصائب في نفسي وأهلي ومالي فلماذا كل هذا؟ فليعلم أن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه حتى يطهره من نجاسات المعاصي التي ألم بها، وهذا في الحقيقة نعمة تستحق

(١) «صحيح البخاري» (٧/ ١١٥):
(٢) «سنن الترمذي ت شاكر» (٤/ ٦٠٢)

الرضا بل الشكر. فعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١] فلايزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض ولا ذنب عليه.

د- البلاء رفعة للأولياء

إذا نزل البلاء بالأولياء، والأخيار الأبرار الذين يقل وقوعهم في الخطأ، فهذا تمحيص ورفع للدرجات، ومن هذا الباب أيضا ما وقع للأنبياء، فهم معصومون من الخطايا، ومع ذلك نزل بهم من البلاء والمصائب ما لايتحمله مؤمن عادي. وليس في هذا غض من قيمتهم عند ربهم، بل لذلك حكم عظيمة، لعل منها ماذكره ابن القيم في قوله: [فإنه سبحانه كما يحمي الأنبياء ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم، يبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم:

أ- ليستوجبوا كمالَ كرامته.

ب- وليتسلى بهم مَن بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أُوذوا من الناس، فرأَوْا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضُوا وتأسَّوْا بهم.

ج- ولتمتلئ صاع الكفار، فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحَقهم بسبب بَغْيهم وعداوتهم، فيعجل تطهير الأرض منهم. فهذا من بعض

(١) «سنن الترمذي ت شاكر»برقم(٢٣٩٦)، (٤/ ٦٠١):

حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة، والنعمة السابغة، لا إلهَ غيرُه، ولا رب سواه][١]

وكذلك ما نزل من البلاء بأم المؤمنين عائشة في حادثة الإفك بسب حقد المنافقين حتى مرضت، فهذا ليس من باب العقوبة، وإنما أراد الله بها وبالمؤمنين خيرا، حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّا لَّكُمْۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ ﴾[٢]

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن: رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) قال: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ»[٣] وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ»[٤]

وفي حديث آخر عند الترمذي، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»: [٥]

فهذه الروايات تدل بجلاء على أن الأمراض والمصائب في حق الأنبياء والصالحين، ترفع الدرجات، ولا تطعن أبدا في دينهم ولا تنتقص من صلاحهم. ولهذا نراهم إذا نزل بهم البلاء، في غاية الصبر.

(١) بدائع الفوائد، (٢/ ٢٢٦)، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان

(٢) [النور، من الآية: ١١].

(٣) «صحيح البخاري» رقم(٥٦٤٥) (٧/ ١١٥).

(٤) («المعجم الأوسط»رقم (٣٢٢٨)، (٣/ ٣٠٢) المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، تحقيق، طارق بن عوض الله بن محمد، الناشر: دار الحرمين – القاهرة.

(٥) «سنن الترمذي، ت: شاكر» (٤/ ٦٠١): وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ»

[فعن عطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا] (١)

هكذا يتعامل المؤمن مع البلاء إذا نزل، يحسن الظن بربه، وتعظم في روحه الرغبة في الصبر والتحمل، ويتجه بقلبه إلى من بيديه تفريج الكروب. ولا يعد البلاء النازل بالمؤمنين طعنا في دينهم. بل قد يزداد البلاء بزيادة التقوى والصلاح، رفعة للمبتلى الصابر في الآخرة.

وخلاصة القول:

إن المصائب التي يصاب بها المؤمن ليست كلها عقوبة له، فقد تكون رحمة به، أو ابتلاء واختبارا لإيمانه، أو تكثيرا للأجر ورفعا للدرجات، ومن هذا الباب مصائب الأنبياء، وقرر هذا ابن تيمية فقال: [المصائب المقدرة في النفس والأهل والمال فإنها تارة تكون كفارة وطهورا وتارة تكون زيادة في الثواب وعلوا في الدرجات وتارة تكون عقابا وانتقاما.] (٢)

(١) «صحيح البخاري» (٧/ ١١٦): برقم(٥٦٥٢)

(٢) «الصارم المسلول على شاتم الرسول» (ص٤٣٢)أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية.

الخاتمة

بعد هذه الجولة السريعة حول تفسيرات الظواهر والكوارث والمصائب في بعض الثقافات الإنسانية يمكننا الوصول إلى عدة نتائج أهمها:

- المعتقدات الوثنية القديمة أرجعت الظواهر والكوارث الكونية إلى قوى خفية متحكمة فيها، وهي مصدر الخير إذا رضيت ومصدر الشر والانتقام إذا غضبت، ومن ثم شرع الوثني في التقرب إليها.

- لم يذهب الوثنيون مذهب الماديين الذين ينكرون وجود خالق للكون. وتفسيراتهم الدينية تعلل وجود الظواهر الكونية بأنها من عمل آلهة. ابتدعوها، من الحدس والأوهام، لا من الوحي والإلهام. فأمسى الخالق مخلوقا والمخلوق خالقا. ثم نحتوا ورسموا ما تصورته قدراتهم الذهنية للآلهة المزعومة.

- الآلهة أو المعبودات في نظر الوثني القديم كالبشر، يرضون ويغضبون، كما يمكن ترضيتهم بالقرابين ولهم صفات البشر أحيانا.

- وهذه الآلهة في زعمهم تتصارع فيما بينها، فتحدث الكوارث التي تقع على العباد _ كما يرعى الفراعنة، أو من غضب الآلهة على الإنسان إذا قصر في تقديم القرابين مثلا فترسل عليه الكوارث، كما في قصة الطوفان البابلية.

- يوجد عامل مشترك بين الديانات الوثنية واليهودية والمسيحية في تفسير المصائب والكوارث الكونية الكبيرة بردها إلى القوة الإلهية، لكنها اختلفت في صفات هذا الإله، حيث آمن الوثنيون بتعدد الإلهة ووقوع صراعات بينهم يترتب عليها الكوارث،

واقتصر، التصور الكتابي على أن الكوارث تقع بتقدير إله واحد، والسبب فيها خطايا البشر.

- في مقابل التفسيرات الدينية السابقة، نجد الاتجاه المادي الذي يفسر الكوارث والمصائب على أساس الأسباب المادية العلمية، ونفي التدخل الإلهي في الظواهر الكونية، فالأعاصير: سببها التيارات الهوائية، وهكذا كل كارثة كونية يتم تفسيرها تفسيرا ماديا صرفا، دون ربط بين الكوارث وإرادة الخالق المدبر، أو بينها وبين ذنوب البشر.

- وإن استلزمت الظواهر المادية عند البعض وجود قوة محركة لها في أول الأمر فإن هذه الصلة قد انقطعت وانتهت.

- الفلسفة المادية الإلحادية نظرت إلى الطبيعة على أساس أن القوى كامنة في الأشياء، وهي فاعلة بذاتها، و أن التفسير الديني ما هو إلا تفسير بدائي للظواهر الطبيعية التي عجز الإنسان البدائي عن فهمها إلا من خلال الآلهة. فالماديون ينفون تقدير الله تعالى لما يقع في كونه.

- أما التصور الإسلامي لما يقع في الكون من مصائب وكوارث فقد تميز بالجمع بين العقل والإيمان بالغيب، وتحرر من الخرافة والإلحاد.

- فهو ينظر إلى أن الكون وما يقع فيه من كوارث، إنما هي من تقدير الله جل شأنه، وأنها تسير وفق سنن وقوانين طبيعية ثابتة، ولها تفسيراتها العلمية وأسبابها الحسية التي تتعلق بالمناخ وغيره، ويستطيع الإنسان معرفة هذه القوانين بالملاحظة والدراسات العلمية، ومن ثم يمكن التنبؤ بها والوقاية من ضررها، وحسن التعامل معها

إذا وقعت، وتخفيف آثارها بالعلم الذي كرم الله به الإنسان. ولا يقتضي هذا التعلق بالأسباب وحدها ونسيان الخالق والموجد للظاهرة.

- كما يعتقد المسلم أن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون الحياة على كوكب الأرض جامعة بين الخير والشر، والسراء والضراء، التي تصيب المؤمن والكافر على السواء ولا علاقة لها غالبا بالسلوك الإنساني، هذا من ناحية،

- ومن ناحية أخرى يعتقد المسلم كذلك أن الله تعالى شأنه قد يسخر الظواهر الطبيعية للانتقام من الظالمين المعاندين، فينزل عقاب الاستئصال على من استجمع موجباته وانتفت موانعه، كما نزل بقوم نوح وصالح وشعيب، أو يعذبهم بما دون ذلك من وباء وقحط وأمراض وجوائح كما حدث مع قوم فرعون، وقررته الآية الكريمة في قوله تعالى: -: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1] فالمعاصي والذنوب تقتضي العقاب، وقد يؤخره الله تعالى لحكمة يعجز عن إدراكها البشر.

- قد تكون الكارثة الطبيعية من باب الابتلاء أو التنبيه للغافلين ودفعهم إلى التوبة وليست من باب العقوبة.

- التعامل مع الكوارث يكون بالأخذ بالأسباب العلمية وقاية وعلاجا، مع الإقبال على الله تعالى بالتوبة والتعبد والدعاء لرفع الضر. فنظرة أهل الإيمان تختلف عن غيرهم تجاه الكوارث الكونية لأنه لا يخرج شيء عن إرادة الله تعالى ومشيئته.

(١) العنكبوت: ٤٠

- العقوبات الإلهية إذا نزلت عامَّة، وهلك فيها الصالحون والأبرياء من الأطفال، فهذا لا يعني أن الإيمان والصلاح لا ينفع أهله ولا يدفع المصائب والكوارث، لأن المصائر بعد الموت مختلفة، فمن كان مؤمنا صالحا كانت موتته من الكارثة رحمة وخاتمة لعمله الصالح، وتعجيلا له إلى الخير والنعيم، ومن كان كافرا مجرما كانت موتته بالكارثة خاتمة لعمله الطالح فتكون الكارثة عقوبة له وتعجيلا به إلى سوء المصير. فليس كل كارثة عقوبة بل قد تكون في حق البعض رحمة ومنحة وإن جاءتهم صورة محنة.

- لا يستطيع أحد أن يقول أن هذه الكارثة في هؤلاء القوم عقوبة من الله تعالى لأن هذا غيب، والواجب هو التأثر بآيات الله تعالى والشعور بالضعف البشري أمام قوة الملك القهار، و الرجوع إلى الله تعالى والأخذ بالأسباب العلمية في التعامل معها والتكافل بين الناس في دفع المضار في الأنفس والممتكلات.

وتوصي الدراسة

بنشر العقيدة الإسلامية الصافية، والتصور الإسلامي الصحيح للكون والحياة، ومطاردة الخرافات في تفسير الظواهر الطبيعية، والتحذير من الخضوع للظواهر الكونية بأي صورة من صور العبادة والتقديس، وعدم الوقوف كذلك على التفسير المادي أو الأسباب والمسببات وحدها والغفلة عن الله الذي خلقها وسيرها وفق سننه وحكمته جل شأنه.

ضرورة تدريس الظواهر الطبيعية في إطار العلم الذي يكشف الأسباب المادية الظاهرة، والإيمان الذي يعرض الحقائق الغيبية، وإرادة الله الخفية.

أهم المراجع والمصادر

١- أساطير بابل وكنعان، شارل فيروللو، تعريب ماجد خير بك، مطبعة الكتاب العربي دمشق. ١٩٩٠م.

٢- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦ هـ): دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م.

٣- الآلهة والأبطال في اليونان القديمة، أ. نهاردت، ترجمة هاشم حمادي، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٤م.

٤- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الشيخ: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ.

٥- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب: ١٣٨٧ هـ.

٦- الثقافة والطبيعة، محمد سبيلا، وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩١م.

٧- الديانة الوثنية المغاربية القديمة، خلفة عبد الرحمن، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، العام الدراسي ٢٠٠٧، ٢٠٠٨م.

٨- الدين والميتافيزيقيا في فلسفة هيوم، محمد عثمان الخشت، دار قباء، العاشر من رمضان. مصر، د. ت.

٩- الصارم المسلول على شاتم الرسول، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية.

١٠- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.

١١- المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية والجائحة الإنسانية خلال العصر الوسيط شمال المغرب، أسكان، الحسين، بحث مؤتمر للجمعية المغربية للبحث التاريخي-المغرب. ٢٠٠٢م.

١٢- المظاهر الطبيعية والحيوانات في المعتقدات الوثنية بالمغرب القديم، د. الطيب قديم، بحث منشور بمجلة العلوم الإسلامية والحضارة، المجلد ٤، عدد٢، سنة٢٠١٩م الجزائر.

١٣- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، ت: طارق بن عوض الله الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، ١٤٣١هـ.

١٤- النظرية المادية في المعرفة ماهي؟ روجيه جارودي، ترجمة محمد عيناني، دار المعجم العربي بيروت.

١٥- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، دار التراث – بيروت، الطبعة: الثانية - ١٣٨٧ هـ.

١٦- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (المتوفى: ١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت.

١٧- تفسير الشعراوي – الخواطر، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم.

١٨- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ): الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.

١٩- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ.

٢٠- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، للإمام/ محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)ت: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٢١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)

٢٢- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر «تاريخ ابن خلدون»، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ) المحقق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

٢٣- سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي:

٢٤- سفر صمويئيل الثاني

٢٥- سنن ابن ماجه، - أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – وآخرون، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٢٦- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية.

٢٧- سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥.

٢٨- طريق الهجرتين وباب السعادتين: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ.

٢٩- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة الإيمان، المنصورة – مصر.

٣٠- مسند أحمد: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

٣١- معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ.

٣٢- معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م.

٣٣- موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، حسن نعمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٤م.

٣٤-إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٣٥-الثقافة والطبيعة، محمد سبيلا، وعبد السلام بن عبد العالي،، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩١م.

٣٦-الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ): وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٧-الحضارة المصرية القديمة د. محمد بيومي مهران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

٣٨-الديانة المسيحية في المغرب القديم النشأة والتطور(١٨٠-٤٣٠م)، عمران عبد الحميد، رسالة دكتوراه بقسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠١١م.

٣٩-الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١)، المحقق: نايف بن أحمد الحمد، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ.

٤٠-القرآن الكريم في مواجهة الماديين والملحدين، أحمد عبد الحميد الشاعر، دار القلم بالكويت، ١٩٨٢م.

٤١-المسألة الحكميَّة في الأمراض الوبائيَّة، (توجد مخطوطتها بالخزانة الحسنيَّة بالرباط، تحت عدد: (٩٦٠٥) بتاريخ ٢٠١٨/٩/١٨م.

٤٢-بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م.

٤٣-تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير»، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

٤٤-جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ)، دار التربية والتراث - مكة المكرمة، بدون تاريخ نشر.

٤٥-ديانة مصر القديمة نشأتها وتطورها ونهايتها، تأليف، أدولف إرمان، ترجمة د. عبد المنعم أبو بكر، و د. محمد شكري، مطبعة مدبولي القاهرة، ١٩٩٥م.

٤٦-سفر التكوين

٤٧-سفر الخروج

٤٨-شرح الكتاب المقدس - العهد الجديد - القمص أنطونيوس فكري

٤٩-عقائد الحياة والخصب في الحضارة العراقية القديمة، نائل حنون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢ م.

٥٠-معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م